

## الفصل الثاني

### النبات والفلاحة والرى عند عرب الجاهلية

ليس من اليسير على الباحث أن ينقب عن الحياة الزراعية في العالم العربي في العصور القديمة في مثل هذا المجال الضيق ، ذلك أن البلاد العربية تنتوع فيها البيئات وتتباين نظرا لامتدادها الواسع عبر قارتي آسيا وأفريقية ، فمن مناطق صحراوية تندر فيها الزراعة ، إلى وديان أنهار لا حياة لها إلا بالزراعة فيها ، ومن مناطق تقف عند حدود الخطوات الأولى للبشرية عبر مسيرة تقدمها المعرفي والتقني ، إلى مناطق عرفت الحضارة في أرقى مستوياتها وبلغت ذروة المعرفة والتقنية بمعايير زمانها . ولعل هذا هو ما يدفعنا إلى أن نحدد مجال البحث في الجزء الحالي بالمساحة الجغرافية لشبه الجزيرة العربية دون بقية المناطق خاصة في العراق ومصر والشام والمغرب ، حيث أننا عندما نتحدث عادة عن العرب قبل الإسلام ، ينصرف الذهن في أغلب الأحوال إلى الجزيرة العربية ، فهي ، " مخزن " العروبة إن صح هذا التعبير ومعينها الذي انطلق منه العرب بعد ظهور الإسلام إلى سائر المناطق الأخرى فعربتها ، صحيح أن هناك أبحاثا تؤكد عروبة المناطق الأخرى المجاورة منذ عصور قديمة ، ولكننا لسنا هنا في موضع يسمح لنا بمناقشة هذه القضية ، ومن ثم فإن الأصوب أن نحدد أنفسنا بالأرض التي لا خلاف عليها لا قديما ولا حديثاً .

#### طبيعة البيئة العربية :

في الجنوب الغربي من آسيا ، وبين البحر الأحمر والخليج العربي وبحر الهند ، تقع بلاد العرب ، التي قسمت في عصر الجاهلية إلى خمسة أقسام جغرافية : تهامة ، ونجد ، والحجاز ، والعروض ، واليمن <sup>(١)</sup> .

والشمس الساطعة تلفح أديمها ، وتهب عليها - أحيانا - رياح السموم ، فتكاد من وقديتها وشدة حرارتها تذيب دماغ الضب ، وتلهب الرمال ، وتصهر الصخور .  
 وكثبانها مكسوة بشجر الغضا والسدر والأثل ، وهى أشجار تكون فى أغلب الأحيان ملتوية معوجة ، ومما ينبت على ثراها بسقيا أمطارها الشيح والقيصوم والحسك والسعدان .

واليمن حالها اختلف كثيرا عن بقية شبه الجزيرة ، فقد شاء الله لها منذ عصرها القديم السعيد ، أن تتدفق مياه الأمطار على جبالها ، وتجوس الأنهار والجداول المترعة خلالها ، وتزدهر فيها البساتين ، وتمرع الحقول المخصبة ، مما كفل لها المجد والشهرة والمدنية التى كانت مؤتلفة مشهورة ، والمكانة التى كانت عظيمة مرموقة (٢) .

والتاريخ يشهد لليمن بمجدها الغابر ، وحضارتها العريقة التى قامت بين شمس المجوس ونيرانهم ، وكواكب الوثنيين وأصنامهم ، وفيها تعددت الهياكل ، وتتوعت المعابد ، بكهنتها وأسرارها ، ولديها عزت الآمال ، وتحطمت المطامع ، ووهنت الأمانى ، فكانت ملكة سبأ ، وكان حمير ، وتبع وقحطان ، وقامت الحصون والقلاع والقصور وسدود الماء ، ونشأ فيها العلماء والشعراء ، ونوابغ فن البناء .

والزائر لبلدان الجزيرة العربية فى الوقت الحاضر يستطيع أن يلمس كيف استطاع الإنسان أن يقهر ظروفها الطبيعية ويطوعها لإرادته بحيث أصبحت لا تشكل عقبة تعوق الناس عن إقامة مجتمعات بشرية منظمة تسير فيها الحياة سيرا نشطا وتعج بالعمل السدوب والحركة المستمرة ... وما هكذا كان الأمر من قبل !! فلقد بلغت قسوة هذه الظروف فى العصور القديمة إلى الدرجة التى ما نظن أن شعوبا أخرى عانت منها مثلما عانى الشعب العربى . لقد حملت فى طياتها كل ما من شأنه أن يبعد الإنسان عن هذه الأرض ، بل يبعد كل ذى حياة إلا إذا كان على قدر عال من الصلابة والمقدرة التى تمكنه من تجاوز القسوة الواضحة .

لقد ساد الجزيرة الجو الحار على العموم ، بيد أنه كان مشبعاً بالرطوبة في المناطق الساحلية ، جافاً في المناطق الداخلية . ومن المعروف أن الجو الحار الرطب يغيث الإنسان بمطر قد ينهمر انهمازاً ، وقد ينزل بمواسم ، ولكن حرارته الشديدة المتشعبة بالرطوبة تهد الجسم وتعطيه رخاوة في بدنه وفي عقله ، تجعله يميل إلى الخمول والكسل والدعة وإلى الاسترسال في العواطف ، ثم تحرمه من نشاط إنسان الجو البارد ، وتجعله دونه في العمل وفي هذه الحياة والضرب في هذه الأرض وفي استغلال التربة وما فيها وما عليها . وأما الجو الحار الجاف ، فيحرم سكانه من نعمة الغيث في الغالب ويلبس سطح الأرض أكسية غبراء من رمال تذروها الرياح . ثم هو يجعل من الصعب على الإنسان أو الحيوان أن يجد قوته في هذه القفار الواسعة المغبرة ، أو أن يعيش فيها عيشة مستقرة دائمة ، في مجتمعات كثيفة كمجتمعات الأجواء الباردة أو المعتدلة أو الحارة الرطبة ، فاضطر إلى التنقل والارتحال بحثاً عن الكلاً والمال ، اللهم إلا في مواطن الماء ، وهي عزيزة ثمينة لأنها في أرض غلب على طبعها الجفاف ، فتصير هذه المواطن القليلة هدفاً لهجمات العواصف عليها في سنى القحط وانحباس المطر ، وأيام الضيق والشدة لسد الرمق وللمحافظة على ما في الجسم الذابل النحيل من عروق لتعينه على البقاء حتى يفنى بطعنه أو بموت حتف أنفه (٣) .

ونجد في شعر شعراء الحجاز وصف كثير للفقر والجوع ، وهم يتحدثون فيه عن ميلهم إلى التصعلك ، وإغاراتهم المستمرة على الأسواق والمناطق الخصبة ، والقبائل الغنية ، لعلهم يظفرون ببعض الغنائم والأسلاب التي يقيمون بها أوادهم ، ويمسكون بها الحياة على أهلهم وأولادهم (٤) .

وكانت القبائل في سهول نجد وبواديها تتباين في الغنى والفقر ، بل إن أبناء القبيلة الواحدة كان فيهم الثرى المنعم والمحتاج المعدم ، وقد أرقّت هذه الأوضاع الاقتصادية والأحوال الاجتماعية المتناقضة بعض أبناء القبائل النجدية ، لأنهم استشعروا وقع الفقر على الناس ، وأثره في النفوس ، وأحسوا حاجة الفقراء والمعدمين وآلام الجوع

والمحرومين فرفضوها وتمردوا عليها وحاولوا إصلاحها بالقوة إذ تصعلكوا واتخذوا الغزو والسلب وسيلة لبلوغ هذه الغاية (٥) .

وقد كثر الصعاليك فى قبيلة هذيل كثرة شديدة ، فقد ذكر الأصمعى أنه كان فيها أربعون شاعرا صلوكا ، كلهم كان يعدو على رجله ، ومن أشهرهم الأعمى وأبو كبير وأبو خراش ، وهو يقول مصورا سوء حالته وأنفته وعفته (٦) :

وإنى لأثوى الجوع حتى يملنى	فيذهب لم يدنس ثيابى ولا جرمى (٥)
وأغتبى الماء القراح فأنتهى	إذا الزاد أمسى للمزج ذأ طعم (٥٥)
أرد شجاع البطن قد تعلمينه	وأوثر غيرى من عيالك بالطعم (٥٥٥)
مخافة أن أحيا برغم وذلة	وللموت خير من حياة على رغم (٥٥٥٥)

(٥) أثوى الجوع : أطيل حبسه ، والجرم : الجسد

(٥٥) أغتبى : اشرب عشاء ، القراح : الماء الصافى

(٥٥٥) شجاع البطن : شديد الجوع

(٥٥٥٥) الرغم : الهوان

وكان عروة بن الورد العيسى أشهر شعراء الجاهلية الذين استوعبوا مفاصد الأوضاع الاقتصادية وتمثلوا مساوى الأحوال الاجتماعية فى سهول نجد وبواديها فتصعلك وثار على أغنياء قبيلته ثورة عارمة ، وجعل همه فى حياته أن يغير عليهم وينهبهم ليوفر للفقراء والضعفاء من قبيلته بعض العيش الذى يقيم أودهم .

وتدل البحوث والدراسات التى قام بها السياح والعلماء عن بلاد العرب ، على أن تغيرا كبيرا طرأ على جوها ، وأن هذا الجفاف الذى عهدناه فى هذه البلاد لم يكن على هذا النحو الذى كانت عليه فى عصور قديمة ، وأن ذلك الجفاف أثر تأثيرا كبيرا فى شبه جزيرة العرب فجعل أكثر بقاعها صحارى جرداء ، كما أثر فى حالة

سكانها ، فقاوم نشوء المجتمعات الكبرى وأثر تأثيرا خطيرا فى تاريخ الأمة العربية وفى حدوث الهجران (٧) .

ويرى العلماء أن الرياح الغربية الباردة المشبعة بالرطوبة كانت تصل إلى أرض شبه الجزيرة العربية وتنزل المطر عليها . وأن هذه البقاع الصحراوية كانت خضراء أهلة بالسكان ، فمثلا المنطقة الواقعة بين ، العلا " و " معان " من المناطق الصحراوية الآن ، كانت من مناطق الغابات المكتظة بالأشجار المملوءة بالحيوانات المفترسة (٨) ، وكانت جبال الطائف تمون مكة بالأخشاب الصالحة للبناء والوقود ، كذلك المنطقة الواقعة بين مكة وعرفة كانت حتى القرن السادس عشر الميلادى مغطاة بالأشجار وبالعوسج والسلم ، وهى من الأشجار الصحراوية .

وقد عرف وادى القرى ، وهو واد بين الشام والمدينة ، وهو بين تيماء وخيبر فيه قرى كثيرة وبها سمى وادى القرى (٩) ، قال أبو المنذر : سمى وادى القرى لأن الوادى من أوله إلى آخره قرى منظومة . وقد عبر القرآن عن ذلك فى قوله تعالى : " وجعلنا بينهم وبين القرى التى باركنا فيها قرى ظاهرة ، وقدرنا فيها السير ، ( سيرُوا فِيهَا لَيْالِي وَأَيَّامًا آمِنِينَ ) (١٠) " ، وأثار القرى إلى الآن بها ظاهرة ، إلا أنها فى وقتنا هذا كلها خراب ومياها جارية تتدفق ضائعة لا ينتفع بها أحد . قال أبو عبيد الله السكونى : وادى القرى والحجر والجناب منازل قضاة ثم جهينة وعذرة وبلى ، وهى بين الشام والمدينة يمر بها حاج الشام وهى كانت قديما منازل ثمود وعاد ، وبها أهلكهم الله ، وأثارها إلى الآن باقية ، ونزلها بعدهم اليهود واستخرجوا كظائمها وأساحوا عيونها وغرسوا نخلها ، فلما نزلت بهم القبائل عقدوا بينهم حلفا وكان لهم فيها على اليهود طعمة وأكل فى كل عام ومنعوا لهم على بوادى القرى فتلا قوله تعالى " أتركون فيها ههنا آمنين فى جنات وعيون وزرع ونخل .. الآية " . ثم قال : هذه الآية نزلت فى أهل هذه البلدة وهى بلاد ثمود ، فأين العيون ؟ فقال له رجل : صدق الله فى قوله ، أحب أن أستخرج العيون ؟ قال : نعم ، فاستخرج ثمانين عينا ، فقال معاوية : الله أصدق من معاوية (١١) .

وهناك أمثلة تاريخية كثيرة ذكرت عن أقوام هلكت كعاد وثمود وأصحاب الأيكة<sup>(١٢)</sup> ، ومن ذكرها الكتاب اليونانيون والرومان لم يبق لها أثر ، وكتابات عثر عليها السياح في مواضع صحراوية مهجورة<sup>(١٣)</sup> ، كل ذلك يدل على مدى التغير الذى طرأ على بلاد العرب - سواء أكان من الناحية المناخية أم الناحية الجيولوجية - فأدى إلى مقاومة ومنع نشوء المجتمعات الكبرى فيها ، وحول أراضيها إلى بقاع صحراوية ، وطبع الحياة فيها بطابع الرحلة والانعزالية الاجتماعية والسياسية ، ويميل كثير من السياح وعلماء طبقات الأرض الذين جابوا أنحاء شبه الجزيرة إلى تأييد القول بظهور الجفاف فى الألف الثانى قبل الميلاد<sup>(١٤)</sup> .

والأرض هى مصدر الثراء والغنى للإنسان ، وعلى مقدار ما يملكه الإنسان من أرض تكون ثروته ويكون غناه ، وعلى قدر ما يبذله صاحب الأرض من جهد فى استغلالها وفى تطويرها وفى استنباط ما فى بطنها من خيرات يتوقف دخله منها وغلته التى تأتيه من أرضه هذه .

ولم تعرف ملكية الأرض والماء إلا بين الحضر ، أما الأعراب ، فإن هذه الملكية كانت عندها للقبيلة ولساداتها حيث يحمون بعض الأراضين ، أو يستنبطون الماء من أرض موات لا ماء فيها ، فنتحول الأرض بذلك إلى أرض نافعة ذات ماء يبسط حافرها حمايته عليها ويجعلها ملكا له ، وقد يزرع عليها فتصير الأرض التى يزرعها ملكا له ، وبهذه الطريقة تكونت الملكية بين القبائل ، ولا يستطيع أن ينال من هذه الملكية بالطبع إلا المتمكن من أبناء القبيلة ومن ساداتها ، ممن يتمكن بما لديه من مال وإمكانيات من استنباط الماء ومن إحياء الأرض واستغلالها بما عنده من أموال وعبيد<sup>(١٥)</sup> .

ومن هذا لإحياء للأرض الموات ، تكونت بعض المستوطنات فى البوادر ، جلبت ظهور الماء فيها الناس إليها فسكنوا حولها وجاءوا من أطرافها للاستقاء من مائها وشجع العثور عليه فى هذا الموضع المتمكنين الآخرين على الحفر أيضا ، فكان إذا ظهر ماء عذب ، جذب الناس إليه وسحرهم بسحره ، وأفاضهم حوله ، فتوسعت

بذلك تلك المستوطنات وتعددت ، وظهرت فيها الملكية الفردية ، والحياة الحضرية القائمة على الحيازة والتملك الفردى بصورة أوسع مما نجدها عند البدوى الاعتيادى الذى لا يملك إلا بيته ، وهو خيمته وأهله ، وما قد يكون عنده من الإبل (١٦) .  
وقد اشتهرت فى أرض الحجاز أودية كثيرة من بينها (١٧) :

١- وادى رضوى ، ويصب شمالى ينبع .

٢- وادى العقيق ، وهو يقع غربى المدينة ويشقه طريق مكة .

٣- وادى فاطمة " مر الظهران " ، وهو من أكثر أودية الحجاز خصبا ، ويبدأ من وادى الليمون ، ويمتد غربا إلى " حدة " على الطريق بين مكة وجدة ، ويبلغ طوله من الشرق إلى الغرب ثمانين كيلومترا ، وهذا الوادى غنى بمياهه الجوفية وفيه حوالى ٣٥ عينا فياضة بالماء منها " عين المضيق " بوادى الليمون وعين " سولة " وعين " الزيمة " وعين " حداء " .

٤- وادى النعمان ، واد خصب التربة يقع بعد عرفة وفيه بئر ينخفض ماؤها عن سطح الأرض نحو ٣٠ مترا تسمى بئر نعمان ، قيل إنها مبدأ عين زبيدة ، والحقيقة أن ماء هذا البئر يتصل بها من سفوح جبل كرا مجتمعا من الأمطار ، وقد جعلت بين هذه البئر وعين زبيدة قناة هى إحدى القنوات التى تصب فى العين .

٥- وادى إبراهيم ، ويخترق مكة من أعلاها إلى أسفلها .

٦- وادى أضم ، وفيه تجتمع سيول أودية المدينة كالعقيق ووادى قناة ، ووادى بطحان ، ثم تكون هذه الأودية واديا واحدا يدعى القسم الواقع بقرب المدينة منه باسم " أضيم " والقسم الممتد إلى بحر القلزم من هذا الوادى يدعى باسم وادى الحمض لكثرة النباتات التى تحمض الإبل برعيها فيه ، ويصب فى البحر جنوبى الوجه (١٨) .

والحق أن علاقة الإنسان بالأرض التى يزرعها منذ فجر التاريخ وتكامله معها هى حقيقة من العسير دحضها ، فالزراعة بالنسبة للمجتمعات التقليدية - كما يقول أحد الباحثين - ليست علاقة إنتاج اقتصادى فحسب ، ولكنها طراز معيشة اجتماعية

أيضا ، وإذا كانت علاقة الإنسان الاقتصادية والإنتاجية بالأرض هي علاقة مادية وتاريخية مرتبطة بأسباب البقاء وغير قابلة للتجزئة ، إلا أن طراز المعيشة والعلاقات الاجتماعية التي تعكسها طبيعة الممارسة لتلك العلاقة الاقتصادية والإنتاجية تتنوع تنوعا كبيرا وفقا لطبيعة تنوع التركيب الجغرافي والمناخى للأرض من جهة ( جبلية - نهريّة - صحراوية صالحة للزراعة - غير صالحة .. الخ ) ، وطبيعة التطور ، والمرحلة التاريخية التي يمر بها المجتمع من جهة أخرى ، والتي تتأثر بما قبلها وتأتى وقائع التطور امتدادا وانعكاسا مباشرا لها إلى هذا الحد أو ذاك ، خصوصا فى المجتمعات التقليدية القديمة ما قبل الصناعة الآلية حيث يميل نمط المعيشة إلى التكامل السلبى مع الأرض الزراعية فى المناطق شديدة الغناء فى مواردها الطبيعية والزراعية ، وشديدة الفقر فى المناطق الصحراوية والقارية على حد سواء ، حيث تؤدى لوجود دوافع البحث عن أسباب البقاء والعمل على تطويرها (١٩) .

كما تؤدى الندرة الغير عادية لهذه المصادر فى الثانية إلى الحيلولة دون إحداث تطور حاسم فى تأكيد أسباب البقاء وتطورها المطرد أيضا رغم توفر دوافع البحث لدى الإنسان وحدتها بحكم الضرورة فى هذه المناطق ، بينما استطاعت البيئات الوسطية الأقل غناء والأقل فقرا أن تقدم نماذج واضحة التكامل الإيجابى فى طراز معيشة الإنسان واهتمامه وطراز حضارته أيضا حيث تتوفر منذ زمن مبكر حالة من التوازن والتلازم المطرد بين توافر دوافع البحث القوية عن أسباب البقاء من جهة واستجابة البيئة الطبيعية لذلك أكثر فأكثر من جهة أخرى .

ويمكن فرز ثلاث بيئات طبيعية فى شبة الجزيرة العربية وهى كما يأتى :  
 المنطقة الخصبة ( الزراعية ) ، المنطقة الأقل خصوبة ، ثم المناطق الصحراوية .  
 والمقصود بالمناطق الأخيرة ، ليست تلك الصحارى الكبرى كالربع الخالى ( مثلا ) ، إذ لا مجال للتتويه بها هنا وذلك لخلوها من النشاط الزراعى ، وندرة الحياة البشرية فيها ، وقد أدى هذا التحديد ( الطبيعى ) إلى تكوين ثلاث مجتمعات فى هذه البلاد (٢٠) :

١- المجتمع الحضري : فإذا ما غضضنا البصر عن دور التجارة في مجمل الحياة الاقتصادية لهذا المجتمع ، فإن الزراعة ستحتل أهمية حيوية ومركزية في النشاط الاقتصادي والمعاشي للناس ، حيث توجد الأرض الخصبة والمياه الوفيرة ، والظروف المناخية الملائمة لمثل هذا النشاط الاقتصادي ، وهذا - كما لا يخفى - قد تركز بشكل خاص في اليمن . وقد أطنب الكتاب القدامى بخصوصية اليمن وكثرة مياهها وخيرات مزارعها ، حتى أن المصادر الإغريقية سمّتها " العربية السعيدة " Arabia Felix ، وبالانجليزية Felicity ، ونعمتها الكتاب المسلمون بـ ( الخضراء ) لكثرة أشجارها وزروعها . ونبه المستشرق ( رودولف كراكيس ) إلى أن النقوش الحجرية المكتشفة في اليمن تبين بوضوح أن الزراعة كانت هي العمود الفقري للحياتين الاقتصادية والسياسية للدول العربية الجنوبية<sup>(٢١)</sup>.

ويضع أحد الباحثين<sup>(٢٢)</sup> فرضا يؤكد أنه على درجة جيدة من الثقة والاطمئنان العلمي نتيجة تحليل قام به لقوى الإنتاج وبعض الدلالات التاريخية المكتوبة رغم قلتها ، بأن نظام الملكية الزراعية في المجتمع اليمني القديم ، خصوصا في فترات الازدهار الحضاري قد مالت حقيقة في معظمها إلى الشكل الجماعي في الاستصلاح والاستثمار والإدارة المركزة تحت إشراف الدولة المركزية وتوجيهها المباشر ، إذا لم يكن قد تم امتلاكها ملكية جماعية بالفعل تنظمها الدولة بموجب تنظيمات وتشريعات تصدر عنها وتراقبها ، وخصوصا وأن القول أو حتى التكهن بانتشار نمط الملكية الإقطاعية الفردية للأرض في تلك المراحل المبكرة والمزدهرة هو من الأمور التي لا يتوفر لها أي سند واقعي لا في طبيعة الظروف الموضوعية المكونة لقوى الإنتاج ( طبيعة التكوين الجغرافي وكمية الموارد الاقتصادية ) ولا في الدلالات التاريخية المتاحة حتى الآن والمكونة لعلاقات الإنتاج ( تاريخ الدول والنظم السياسية والاقتصادية والدينية ) والتي تكاد في مجملها أن تقف على طرفي نقيض أو على خط متعارض على الأقل مع مبدأ انتشار طابع الملكية الإقطاعية الخاصة للأرض وفي فترات الازدهار الحضاري القديم بالذات .

٢- المجتمعات شبة الحضرية : (٢٣) تعيش مثل هذه المجتمعات بصورة خاصة فى الحجاز ونجد والساحل الشرقى والجنوبى ( فى جوار اليمن ) من الجزيرة العربية حيث كانت أحوالها الجغرافية - فى أغلب أقسامها - غير قادرة على خلق ظروف مناسبة لقيام زراعة مزدهرة إذ لم يكن فى هذه المناطق أنهار جارية خلا بعض الوديان التى تسيل فيها مياه الأمطار القليلة . ومع أن العيون والآبار قليلة نسبيا ومياها ضحلة ، فقد قامت حولها بعض الجواء ( الواحات ) . وبالرغم من ذلك فيمكن أن نعد فى هذه المنطقة الأقل خصوبة ، مناطق عديدة كانت الزراعة فيها تشكل ركنا أساسيا فى حياتها المعاشية مثل السفوح الشرقية من سلسلة جبال السراة ، ونجد ، وفى الجهات الشرقية والجنوبية من جزيرة العرب . أما أهم المدن فى شمال الجزيرة العربية التى أحيطت بالمزارع والتى اعتمدت فى اقتصادها على الزراعة ، وكذلك التى يمكن اعتبارها من نتاج مجتمع المستوطنات ، فهى يثرب ، وخيبر ، والطائف ، وتيماء . ومن الجدير بالذكر أن هذه المناطق الزراعية بقسميها الخصب والأقل خصوبة ، لم تكن تؤلف - فى الواقع - إلا جزءا يسيرا إذا قيست بالنسبة لمجموع شبة الجزيرة كلها (٢٤) .

٣- المجتمعات البدوية : أما المناطق البدوية كتهامة ونجد وصحراء النفود والبحرين فقد اعتمد أهلها على رعى الأغنام والانتقال بها وراء الكلاً والماء . وقد كانت الإبل - ولونها كلون الصحراء - هى الحيوان العزيز الذى اتخذه الإنسان فى مثل هذه البيئة فياكل لحمه ويشرب لبنه ، ويصنع من شعره مسكنه وأثاثه ومتاعه وملابسه . ولكن المجاعة وانقطاع المطر كانت تهدد العربى وأسرته فى كل وقت بحيث أنها كانت تدفعه أحيانا إلى أكل نحاتة قرون خروف وظلائها (٢٥) ، أو أن يفتح عرقا فى جمل ليشرب دمه ، وأحيانا أخرى إذا زاد به الجوع ، ربط حجرا على بطنه . وكان بعض الأعراب يذبون الكلاب كقبيلة أسد أو يأكلون لحوم الناس كقبيلة هذيل أو يأكلون الجراد كقبيلة طى ، كما أن بعض الأعراب كانوا يأكلون الحيات والعقارب والجعلان والخنافس وحتى القمل .

وما كان البدوي يفكر في الاشتغال بمورد ثابت يربطه بمكان لا يبرحه طول حياته وتستتره حيطانه عن نور الفضاء واتساعه الفسيح الأرجاء ، ومن ثم أنف الاشتغال بالزراعة فترك ذلك لغيره ممن كان يعتبرهم أقل من البدو أنفة وكبرياء . وكان مبدؤه في ذلك " الذل بالمحراث ، والمهانة بالبقر ، والعز بالإبل ، والشجاعة بالخيول " (٢٦) .

وبالرغم من أن الزراعة لم تكن تشكل العنصر الأول في حياة هذه المجتمعات ، بل اقتصرت على بعض المناطق فيها ، فإن الأغنياء والموسرين قد مارسوا أشكالاً متعددة من النشاط الزراعي تبعاً لطبيعة وملكية الأرض والناس العاملين عليها ، مثل الزراعة والمواجرة ، والمخابرة ، والمحاولة والمزاينة ، ومن الجدير بالذكر أن هؤلاء الأثرياء - لا سيما اليهود حينئذ وجدوا - كانوا يبذلون حماساً شديداً للاستحواذ على الأراضي الزراعية ، وطريقتهم المفضلة لذلك هي إقراض المال بالربا ، ومتى عجز المقترض عن تسديد ما بذمته ، استولوا على أرضه أو غلته بل وحتى حرите الشخصية أو حرية بعض أفراد عائلته ، وقد يكون للعرف الجاهلي في افتخارهم بحيارة الأراضي الزراعية وبلذرائهم للاشتغال بالزراعة بأنفسهم أثر في استخدام العبيد في كراء الأرض واستغلالها (٢٧) .

والأرض عامر أو غامر ، والعامر الماهول والمزروع والمستغل ، والغامر خلاف العامر وهو الخراب . والغامر ، الأرض ما لم تستخرج حتى تصلح للمزارعة والغرس . وقيل : هو ما لم يزرع مما يحتمل الزراعة . وإنما قيل له غامر لأن الماء يبلغه فيغمره (٢٨) ، ويقال للأرض العامرة : السوداء ، وأرض سوداء ، أرض سوداء ، أرض مغروسة ، والأرض في عرف العرب إذا غرست أسودت واخضرت ، و (البيضاء ) ، الخراب من الأرض لأن الموات من الأرض يكون أبيض (٢٩) .

والسبور ، الأرض قبل أن تصلح للزرع ، وقيل : هي الأرض التي لم تزرع ، أو الأرض كلها قبل أن تستخرج حتى تصلح للزرع أو الغرس . ونكر أن المعامى .

الأعلام من الأرض مالا حد له . والإغفال مالا يقال على حده من الأرض (٣٠) .  
والمعامى على حد قول بعض العلماء إغفال الأرض التي لا عمارة بها ، أو لا أثر  
للعمرارة بها (٣١) . والغفل : مالا عمارة فيه من الأرضيين .

### الرى :

وقد تتبه اللغويون والأدباء إلى أهمية المطر فى الشعر العربى القديم ، فخصوه  
بصحف كثيرة تعنى بشرح ألفاظه ، وتفسر معانيه ، وتبين أحواله ، وأسمائه ،  
وصفاته ، وأشكاله ، وما يتبعه من سحب وتلج ويرد وريح ورعد وبرق وكسوف  
وأنواء . وخصوا الأنواء بنصيب كبير من كتب المطر ، عصفت بد الزمان بأكثرها  
ولم منها إلا القليل ، وإلا أسماء مجردة تكشف عن علم ضاع واندثر ، وأثبت " أبو  
سويلم (٣٢) قائمة بها ، نذكر من بينها :

- كتاب الأنواء للدهنى ، معاوية بن عمار العبدى ( ت ١٤٥ هـ )
- كتاب الأنواء لابن عمار ، إسماعيل بن عمار بن عيينة الأسدى ( نحو ١٥٧ هـ )
- كتاب الأنواء لأبى عبد الله القاسم بن معن بن عبد الرحمن المسعودى الكوفى ( ت ١٧٥ هـ ) .
- كتاب الأنواء لأبى فيد ، مخرج بن عمرو السدوسى ( ت ١٩٨ هـ ) .
- كتاب الأنواء للنضر بن شميل اللغوى المحدث ( ت ٢٠٣ هـ )
- كتاب الأنواء لقطرب ، محمد بن المستنير ( ت ٢٠٦ هـ ) .
- كتاب الأنواء لابن كناسة ، أبو يحيى عبد الله بن يحيى ( ت ٢٠٧ هـ ) .
- كتاب المطر لأبى زيد الأنصارى ، سعيد بن أوس ( ت ٢١٥ هـ ) .
- كتاب الأنواء للبيهدادى ، محمد بن حبيب ( ت ٢٤٥ هـ ) .
- كتاب الأنواء لأبى محلم الشيبانى ، محمد بن هشام بن عوف ( ت ٢٤٥ هـ ) .
- كتاب الخصب والقحط للسجستانى ، أبى حاتم سهل بن محمد ( ت ٢٥٠ هـ ) .
- كتاب أسماء السحاب والرياح والأمطار للزبادى ، أبى إسحق إبراهيم بن سفيان ( ت ٢٤٩ هـ ) .

- كتاب السحاب والغيث وأخبار الرواد وما حمد من الكلام ، لابن دريد أبي بكر  
محمد بن الحسن الأزدي ( ت ٣٢١ هـ ) .

وكانت الأمطار الغزيرة تسقط على سهول نجد وصحاريها في أوقات متباعدة  
فينتشفع عنها الجذب ، ويشيع فيها الخصب ، وقد وصف شعراء نجد مشاهد المطر  
الرائعة ، وما كان يصاحبها من برق ورعد وسحب تقترب من الأرض ، ثم ينهل  
منها الماء فيجرى في جنباتها ويملاً غدرانها ووديانها ، ووصفوا أثر المطر في إحياء  
الأرض بعد موتها ، فإذا وجهها تكسوه الأعشاب والأشجار والأزهار ، وإذا هذه  
المناظر الخلابة تبعث الفرحة والمسرة في الإنسان والحيوان والطير ، وصوروا  
أيضا السيول الجارفة التي كانت تجتث كل ما تمر به وتأتي عليه إذ كانت تهدم  
البيوت وتقتل الحيوان وتقتلع الأشجار (٣٢) .

وفى الأخبار التي تروى عن الجاهليين وغيرهم من تقديس بعض الآبار  
والعيون والتبرك بشرب الماء منها دليل على نظرة التقديس التي نظرتها الشعوب  
السامية وغيرها إلى الماء ، فالماء هو الحياة ، ولا بد أن تكون هذه النظرة التقديسية  
هي التي حملت على تقديس بئر زمزم ، ولا يقدر أهمية البئر حق قدرها إلا سكان  
هذا البلد الكائن في واد غير ذي زرع وماء. ولولا زمزم والآبار الأخرى التي  
احترقها أهله ، والآبار والعيون الواقعة في أطرافه ، يحملون منها الماء إلى بلدهم  
حملا ، لهلك أهله ، أو هجروه ولا يدرك المرء قيمة الماء إلا إذا كان في صحراء  
قفرة لا ماء فيها ثم نفذ ماؤه ولهذا كان الغيث رحمة عظمى للأعراب بغيثهم بعد أن  
يتعرضوا للجذب والهلاك (٣٤) .

ولا غرابة بعد ذلك أن نجد العرب تقول في دعائها على الإنسان : ماله أحر  
الله صدره ، أى أعطشه أو قيل : معناه أعطش الله هامته ، وأحر الرجل فهو محر أى  
صارت إبله حرارا أى عطاشا . وفى الدعاء : سلط الله عليه الحرة تحت الفرة ! يريد  
العطش مع البرد ، قال اللحياني : هو دعاء معناه : رماه الله بالعطش والبرد (٣٥) .

ومن الناحية الهيدرغرافية ، فان بلاد العرب فى جملة البلاد التى تكاد تتعدم فيها الأنهار والبحيرات ، ويندر سقوط الأمطار عليها ، ولذلك صارت أكثر بقاعها قليلة السكان غير أنها كثيرة الأودية التى تسيل فى بعضها المياه عند سقوط الأمطار ، وبعضها يسير فى اتجاه ميل الأرض ، كما أن بعضها الآخر وبخاصة التى تصب فى البحر الأحمر تصير عميق المجرى شديد الانحدار ، تتحدر فيه السيول بشدة إلى البحر فتضيع فيه ، وربما كانت فى بعض الأحيان خطرا يهدد القوافل والمدن والأملاك ، ويأتى على الناس بأفدح الخسائر (٣٦) .

وفى الحجاز مواقع لعدة سدود أقيمت لحفظ المياه التى تلى سطح البحر ، وعدد منها يحتوى على سد من أصل قديم ، ومن بينها (٣٧) :

١- سد العيار ، ويبعد نحو ستة أميال شرقى الطائف ، وعلى صخوره كتابة كوفية تدل على أنه أنشئ على عهد معاوية أمير المؤمنين ، وقد بناه عبد الله بن إبراهيم عام ٥٨ بعد الهجرة ، ٦٨٠ بعد الميلاد ، ولم يستعمل فى بنائه الطين والملاط .

٢- سد السلمجى أو ( السلمقى ) ، ويعرف كذلك بسد ثمالة أو سد بنى هلال ، ويبعد نحو عشرين ميلا من جنوب شرقى الطائف .

٣- سد الجبر جب بالقرب من وادى محرم ، ويقع على بعد ٨ أميال شمالى غربى مدينة الطائف ، وهو جديد نسبيا .

٤- سد الحصيد ، وهو أحد ستة سدود لتخزين مياه الرى حول خيبر ، وهذا السد مبنى من حجارة مكسورة مع ملاط وكلس ، ويبعد نحو ١٥ ميلا إلى الجنوب الشرقى من قرية خيبر ، وطول قاعدته ١٨٢ قدما ، ويعلو فوق مجراه المبنى من الحجر ٢٨ قدما ، وسعته نحو ٧٥٠ فدانا ، ويقال إن هناك خمسة سدود أخرى موجودة بحالة مماثلة لذلك السد .

٥- ومن السدود الفرعية كذلك سد ثلبة ، وسعته ٦٤٠٠٠ متر مكعب ، وكان الغرض منه تخفيف حدة السيول وحماية البساتين ، وسد العرض وهو قريب من الطائف ، وقد تهدم هذا السد .

وليس في شبه الجزيرة العربية نهر واحد بالمعنى المعروف من الأنهار ، وما فيها من جداول غير صالحة للملاحة ، فهي إما قصيرة سريعة الجريان ، شديدة الانحدار ، وإما ضحلة تجف في بعض المواسم ، غير أن العلماء يستنتجون من اتجاه الأودية ومن وجود العاديات والخرائب وأثار المكنى على أطرافها والترسبات التي تمثل قيعان الأنهر ، أن هذه الأودية في الحقيقة كانت أنهارا في يوم من الأيام ، وأن جوانبها كانت مأهولة بالسكان زاخرة بالحياة ، ويؤيد هذا الاستنتاج ما ورد في كتب اليونان والرومان من وجود أنهار طويلة في بلاد العرب ، فقد ذكر هيرودوت اسم نهر دعاه ( كورس ) قال عنه أنه من الأنهر العظيمة وأنه يصب في بحر الأريتريا ، ويقصد به البحر الأحمر (٣٨) .

ويرى بعض العلماء أن المكان الذي ذكره هيرودوت هو وادي الحمض ، المار بشمالى " قرح " (٣٩) (على مسافة ٤٣ كيلو مترا من الحجر ) ، وقد كانت عامرة فيما مضى بالزروع والبساتين ، وهى المعروفة " ببساتين قرح " ، ويوجد بالقرب منها " سقيا يزيد " أو قصر عنتر " كما تسمى في الوقت الحاضر على بعد ٩٨ ميلا من شمال المدينة (٤٠) . كما ذكر بطليموس اسم نهر عظيم سماه ( لار ) Lar زعم أنه ينبع من منطقة نجران أى من الجانب الشرقى من السلسلة الجبلية ، ثم يسير نحو الجهة الشمالية الشرقية مخترقا بلاد العرب حتى يصب فى الخليج العربى . ويرى بعض العلماء أن هذا النهر الذى يشير إليه بطليموس هو وادى الدواسر الذى تمده بعض الأودية المتجهة من سلاسل جبال اليمن بمياه السيول (٤١) .

وقد قسم بعض العلماء المياه المستخرجة إلى ثلاثة أقسام : مياه أنهار ، ومياه آبار ، ومياه عيون . وقسموا مياه الأنهار إلى ثلاثة أقسام : أنهار كبار لم يحفرها الأدميون وأنهار صغار لم يحتقرها الإنسان ، وأنهار احتقرها الناس ، فتكون ملكا لمن احتقرها لا حق لغيرهم فى الانتفاع منها .

وأما الآبار ، فأبار تحفر للسابلة ، فيكون ماؤها مشتركا ، وآبار تحفر للارتفاق بمائها كالنبادية إذا انتجعوا أرضا وحفروا فيها بئرا لشربهم وشرب مواشيهم ، كانوا

أحق بمائها ما أقاموا عليها في نجعهم ، فإذا ارتحلوا عنها صارت البئر سابلة وآبار مملوكة ، وتكون ملكا لملكها لا ينازعه عليها منازع .

وقسموا العيون إلى ثلاثة أقسام : عيون لم يستتبطها الأدميون ، وعيون استتبطها إنسان فتكون ملكا لمن استتبطها ويملك معها حريمها ، وعيون يستتبطها الرجل في ملكه فتكون ملكا له (٤٧) .

وكانت الآبار تنظف من الأتربة والطين والأوساخ المتركمة بالججبية ، وهي نوع من الزبيل يصنع من الجلد ، كما يستخدم الثوج في التنظيف والتنقية من الشوائب والعلائق وكانت تصنع من الخوص ، أما الحفص فهي زبيل صغير من آدم . وكانت الآبار الكبيرة تنظف بنزول الرجل فيها فيشد الرجل من وسطه بالحبل ويترك طرفه في يد رجل آخر ، ويقال لهذا الحبل الجعار ، وكانت تترك في جدر الآبار أماكن للأقدام ليتمكن الرجل من النزول والصعود بعد أداء مهمته . ومن ناحية أخرى كان يستعان بالثيران والجمال والحمير والبغال في متح الماء بالدلاء من الآبار الكبيرة الواسعة لسقى المزارع والبساتين والناس ، ويشرف على ذلك العبيد أو الفلاحون .

وقد أدت حالة القلق وعدم الركون إلى استمرار وانتظام موارد المياه في المجتمع اليمني القديم إلى أن يتطلع اليمنيون إلى ما يتجاوز حدود واقعهم المعطى وأن يتشبعوا دائما بروح الحذر وعدم الركون للأمر الواقع أو الاستسلام له تحت مختلف الظروف ، فالمزارع اليمني كان مثلا يضع في احتماله توقف هطول الأمطار لبعض الوقت أثناء وجود المحصول الرئيسي في الأرض بحيث يؤدي التوقف إلى تدهور كبير في كمية الناتج في النهاية ، فيبادر في نفس اللحظة إلى اقتلاع المحصول الرئيسي من الأرض نهائيا واستبداله بمحصول آخر يتناسب مع موسم المطر وكمية هطوله التي تمت بالفعل أو المتوقعة . وقد يحدث العكس تماما حينما تكون كمية الأمطار أكثر من اللازم ، فتجرف الأرض وتفسد المحصول ، كما أنه قد يفاجأ بهطول أمطار غزيرة في وقت لم يكن يتوقع هطولها كثيرا بهذه الكمية ، فيبدأ ينتهز الفرصة بزراعة الأرض بالمحصول المناسب لكمية الأمطار في هذا الوقت من السنة

ويجنى بذلك محصولا وفيرا غير متوقع ، وقد يتوقع مرور موسم كامل دون أن يجنى أى محصول رغم محاولاته الكثيرة والمتكررة ، فيعتمد إلى اقتلاع المحصول نهائيا وإراحة الأرض من الزراعة فى هذا الموسم نهائيا والاستعداد للانتقال إلى المناطق المجاورة حيث يكون المحصول وفيرا للعمل هناك حتى نهاية الموسم (٤٣) .

كما أنه يظل فى عملية صراع دائم فيما يتعلق بتوفير الكمية الكافية من المياه لرى المحصول من خلال عمل القنوات والمساقى التى تعترض مجرى السيول المنحدرة لى يوجهها إلى قطع الأرض المتناثرة هنا وهناك التى يملكها . وقد يحدث العكس ما بين لحظة وأخرى حينما يعانى الأمرين فى سبيل تجنب قطع الأرض هذه ممرات المياه الغزيرة وشديدة الانحدار التى يتجاوز حد الحاجة ، وتشكل خطرا ليس على المحصول فحسب ، بل وعلى الأرض نفسها حيث قد تقوم السيول بجرفها وتدمير مدرجاتها المسطبية المعقدة البناء ولعل مثل هذه الظروف هى التى دعت إلى التفكير فى إنشاء سد مأرب .

فعلى بعد مائة وتسعين كيلو مترا شرق مدينة صنعاء عاصمة اليمن وعلى أطراف الربع الخالى ، فى ذلك الوادى الفسيح المترامى الأطراف المرتفع فوق سطح البحر بـ ٣٩٠٠ قدم ، نشأت حضارة عريقة ،وقامت مملكة واسعة عرفها التاريخ باسم مملكة سبأ ، واتخذت عاصمتها مدينة ( صرواح ) ، ثم مدينة مأرب التى بلغت ذروتها فى القرن الثامن قبل الميلاد (٤٤) .

وعلى بعد بضعة أميال من مأرب ، وعند ذلك الممر المائى الذى تلتقى فيه عشرات الوديان المائية والأنهار الصغيرة التى تتحدر من جبال اليمن إلى وادى اذنه (٤٥) بنى السبئيون سدا عظيما يعد من أكبر الحواجز المائية آنذاك ، وأحد عجائب العالم القديم فى الهندسة المعمارية .

وكان طول السد ٨٠٠ نراع وعرض ١٥٠ نراعا ، بناه " نمر على وتر " وأكمله " يثعمر بيان " وأضاف إليه " شمر يرعش " إضافات مهمة وكان بناؤه

بالحجارة فى طرفى جبلين حيث يتفرع عدد من القنوات ، وكان على فوهة كل قناة سد آخر مبنى بالحجارة فيه فتحة أشبه بالناظم <sup>(٤٦)</sup> .

وأول من شاهد أنقاض هذا السد من المسلمين هو الهمداني ( توفى سنة ٩٤٥م ) ووصفه وصفا دقيقا فقال " والجنتان عن يمين السد ويساره ( اللتان أشار إليهما القرآن ) وهما اليوم غامرتان ، وإنما عفتا لما اندهق السد ، فارتفعتا عن أيدى السيول . وأما مقاسم الماء من مذاخر السد فيما بين الضياع فقاومة كأن صانعها فرغ من عملها بالأمس ، ورأيت بناء أحد الصدفين باقيا ، وهو الذى يخرج منه الماء ، قائما بحاله على أوثق ما كان وقد بقى من العرم شئ مما يصل إلى الجنة اليسرى يكون عرض أسفله خمس عشر ذراعا " <sup>(٤٧)</sup> .

ولقد كان هذا السد السبب الأول فى رخاء المنطقة وسدادها وبروزها إلى مسرح الحضارة العالمية كبلد له تاريخ مجيد وماضى مزدهر ، ويكفى أن القرآن الكريم قد وصفها بالبلدة الطيبة ونعت أهلها بالقوة واليأس الشديد ، كما كان انهدامه بعد ١٢ قرنا من الزمن العامل الأكبر فى بلاء هذه المنطقة وشقائتها وتفرق أهلها .

وليس من السهل معرفة الوسائل التى كانت تقوم عليها عملية إغلاق الفتحات التى بالسد لغرض حفظ المياه ، ثم فتحها بقصد تصريفها إلا أن يشاهد على أبواب تلك الفتحات أعتاب جانبية بارزة ربما كانت مواضع أبواب متحركة يتم فتحها وإغلاقها بطريقة آلية دقيقة جدا <sup>(٤٨)</sup> .

ونظرا لضخامة البنيان فمما لا شك فيه أن إنجازَه قد استغرق طويلا من الزمن ، ويوجد على أحد جوانب السد نقش الملك شرحبيل يحدثنا بأن ترميم السد عام ٤٥٠م قد أخذ من الوقت ما يزيد على الثلاثين عاما ، وإن اشترك فى العمل عشرون ألف عامل ، أما نقش أبرهة الذى رمم السد ثانية عام ٥٤٣م ، فينص على أن مدة العمل كانت أحد عشر شهرا فقط إلا أن عمل الملك شرحبيل لم يقتصر على ترميم السد فقط بل اكتنفه تشييد سدود أخرى وإصلاحات تتعلق بالأرض والحقول مصارف ، وما يدرينا أن الإمكانات التى سخرت كانت من القوة والقدرة بحيث

سهلت إنجاز هذا المشروع الجبار خلال مدة قصيرة من الوقت<sup>(٤٩)</sup> ، وربما لا تتعدى مواسم الجفاف لأن بناء جزء دون آخر معناه تعرض الجزء المبنى للسيول القوية التي تأتي أيام الأمطار فتكتسح ما أمامها من حجر وشجر ، ويستنتج من هذا أن منات الألوفا من السبئيين قد اشتركوا في تشييد السد .

وتصف الدكتورة كلود فايان الطبيبة الفرنسية بقايا سد مأرب بقولها : " لا تزال الأحجار المنحوتة ببراعة ، منطبقة بإحكام ، ولا يزال الأسمنت الذي يغطي منحنيات القنوات كما هو ، وكأنه لم تمر فترة طويلة عليه ، ولا يسع المرء إلا أن يعجب بدون تحفظ إزاء اكتمال هذا العمل الجدير بنسبته إلى مهندس معاصر " (٥٠) .

ويذكر ويندل فيليب طريقة بناء السد فيقول " وأكثر ما أدهشنا بالفعل كانت الطريقة التي وضعت بها تلك الحجارة الهائلة بعضها فوق بعض ، وبترتيب دقيق ، بحيث كان الحجر يناسب الآخر وكأنها قطع من الفسفاء ، وقد رأينا قسما من جدار السد يرتفع ٥٠ قدما ما زال شامخا كما كان عندما أنشأه فنانون سبأ العظام قبل عام ٢٧٠٠ ق.م (٥١) .

وبعد ستة قرون على بناء سد مأرب ، بدأ التصدع ، ففي عام ١٤٥ ق.م ظهرت أول بوابر الانهيار والخراب ، ولكن سرعان ما تضافرت الجهود لترميمه ، وظل قائما حتى عام ١١٥ ق.م فداهمته السيول وأصابه الدمار ، فحلت بالبلاد كارثة عظيمة ، وأصابت سكان اليمن أعظم مصيبة عرفها التاريخ القديم ، فتفرقوا في الأرض بعد انهيار السد ، وكان ذلك هو سيل العرم<sup>(٥٢)</sup> " فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبذلناهم بجنتهم جنتين نواتا أكل خبط وأثل وشئ من سدر قليل " (٥٣) .

وإذا كانت الطبيعة الجغرافية المتضرسة لمناطق الارتفاعات الجبلية أو مناطق المدرجات في جنوب الجزيرة قد حدثت بطبيعتها من طموح المزارع العربي في اليمن في الحصول على مساحات أوسع من الأرض ومجال أرحب لتحدى هذه الطبيعة والإحساس بالتفوق عليها ، فإن المناطق الأقل تضرسا في الوديان العميقة وسفوح الجبال والمساحات الداخلية والمتداخلة مع تلك المرتفعات الجبلية قد أعطت هذا

الإنسان الفرصة الذهبية الكافية لتحقيق كل طموحاته المادية والمعنوية بدون أدنى شك ، ذلك أنه بالرغم من أن ٩٩% على الأقل من مجمل الأراضي والسدود والمزارع الاقتصادية التي تم استصلاحها منذ أكثر من ٣٥٠٠ سنة على الأقل قد تهدمت تماما مرافق ريها ومواصلاتها من سدود وطرق ، إلا أنه ما يزال في مقدورنا أن نشاهد بالعين المجردة بقايا وأنقاض هذه الأراضي الزراعية ومرافقها من سدود وطرق وغيرها بطريقة لا تختلف كثيرا عن مشاهدة آثار الحصون والمدن القديمة أيضا (٥٤) .

أن الكثير من هذه المزارع كان يمتد بعضها ليشمل مساحات من الأراضي تتجاوز مئات الأقدنة إن لم نقل آلافها ، وذلك من خلال ملاحظة بقايا الجدران والحواجز الصخرية التي يمتد طول بعضها إلى عدة كيلو مترات تحتضن مناطق جغرافية بأكملها والتي تم بناؤها بطريقة شبه أسطوانية من حيث حجم الأحجار ومئاته بناياتها وبارتفاعات يصل بعضها إلى عشرين مترا ، فتمط هذه الجدران منتشرة في معظم المناطق المشار إليها والتي كانت تحتضن وراءها المساحات الزراعية الهائلة قبل أن تتحول اليوم إلى أحرش أو قطع من الأرض المفتتة عديمة الرى وريثة المحصول حيث ما يزال يضرب بتلك الجدران والحواجز المثل بين الفلاحين والمزارعين حتى اليوم في الإقنات والمئات ، وفي التفرقة بين أنواع الحواجز والجدران الزراعية الجيدة والريثة في البناء بصفة عامة . إذ أنه من السهل عليك أن تسمع أحد الفلاحين وهو يفخر بأنه قد أقام أرضه على جدار ( أسعدى ) أو جدار ( جاهلى ) أو جدار ( قرمطى ) وهي التسميات التي صاروا يطلقونها على آثار تلك الجدران والحواجز المنيعة هنا وهناك من بقايا السدود والطرق والمزارع الكبيرة (٥٥) .

والأودية هي أعظم مناطق الماء والخصب في الجزيرة العربية كما أشرنا ، ويقال للوادي ( العقيق ) ، والعرب تقول لكل مسيل ما شقه السيل في الأرض فأنهره ووسعه عتيق (٥٦) ، قال ياقوت أن بلاد العرب كان بها أربعة أعقة وهي أودية عادية شقتها السيول ، وقال الأصمعي : الأعقة ، الأودية ، فمنها عقيق عارض اليمامة ،

وهو واد واسع مما يلي العرمة يتدفق شعاب العارض وفيه عيون عذبة الماء ، ومنها عقيق بناحية المدينة وفيه عيون ونخل .

وقد صور الشعر العربي القديم ما ازدهرت به يثرب من زراعة ، وكثرة الآبار وانتشار النخيل ، يقول كعب بن الأشرف اليهودى مفتخرا بما لهم من مزارع ومياه (٥٧) :

ولنا بئر رواء جمّة	من يردها بإناء يغترف
ونخيل فى تلاع جمّة	تخرج التمر كأمثال الأكف
وصرير فى محال خلته	آخر الليل أهزيج بنف

وفى الطائف يعيش الناس حياة مستقرة متحضرة ، لعلها ناشئة عن اشتغال أهلها بالزراعة والتجارة معا ، فقد كانت أرضهم خصبة ، ومناخهم معتدلا حتى لكانها قطعة من بلاد الشام ، ولأجل هذا امتدح الشاعر طيب عيشهم الذى تجافى عن حياة البداوة الغليظة (٥٨) :

لله در تقيف أى منزلة	حلوا بها بين أهل الأرض والجبل
قوم تخير طيب العيش راندهم	فأصبحوا يلحفون الأرض بالحلل
ليسوا كمن كانت الترحال همته	أخبث بعيش على حل ومرتحل

وكان ما يساعد أهل مدينة يثرب على احتراف الزراعة أن كانت تسيل بها وديان كثيرة تفيض بمياه السيول التى تتجمع فى الحراث الشرقية والجنوبية فى فترات مختلفة من السنة فتسيل إلى الغرب والشمال حتى تتجمع آخر الأمر فى شمال غرب المدينة عند مجمع الأسيال حيث تنصب فى وادى أضم الذى يسيل شمال غربى أحد . وهذه الوديان كانت تتخلل منطقة المدينة كلها فتروى أرضها ، وتسيل مياهها من شراج الحرة الشرقية فى مياه قليلة عادة لا تصل إلى أكثر من ارتفاع الكعبين ولكنها كانت أحيانا تفيض حتى تصل إلى أنصاف النخل ، وكان الزراع يسقون نخيلهم وزروعهم من هذه المياه فيقسمون الماء بينهم بأن يحبس الماء صاحب الأرض العالية حتى يسقى نخله فتصل إلى جذوره بارتفاع الكعبين ، ثم يرسلها إلى من هو أسفل منه

فيسقى<sup>(٥٩)</sup> . وفي الأوقات التي تشح فيها مياه الوديان أو تتقطع ، وفي الأماكن التي لم تكن تصل إليها ، كان الناس يستخدمون مياه الآبار في إرواء مزارعهم ، فيرفعونها من الآبار لرى الأراضي القريبة من البئر أو يحملونها على الجمال النواضح لرى الجهات التي تبعد عنها<sup>(٦٠)</sup> .

وكان جل أهل المدينة يعملون بالزراعة ، منهم من كان يملك الأراضي الواسعة يزرعها لحسابه أو يزارع عليها غيره أو يكرها ( يؤجرها ) ، ومنهم من كان يملك قدرا يقوم على زراعته بنفسه ، ومنهم من لم يكن له ملك خاص فيزرع في ارض غيره مزارعة أو كرا<sup>(٦١)</sup> .

وكانت لهم طرق في المزارعة والمؤاجرة ، بحسب جودة الأرض ، فقد كانوا يزارعون على الثلث أو على الربع وأحيانا على النصف مما تنتجها الأرض . أما المؤاجرة فلم تكن المعاملة فيها بالدنانير أو بالدرهم ، وإنما كان لهم فيها أيضا عدة طرق ، إما يؤجر الشخص حقله على الربع من المحصول مع شئ من التبن ، أو شئ من المحصول يستثنيه صاحب الأرض ، أو يؤجرها على عدد محدد من أوسق التمر والشعير ، أو أن يسمى قسم من الحقل لصاحب الأرض وقسم للزارع ، وكل منهما يأخذ ما ينتج قسمه قل أو أكثر ، وكان ربما يحدث أن يصاب أحد القسمين فيضعف محصوله ، أو لا ينتج أصلا فيلتزم صاحب القسم الآخر تجاهه بشئ<sup>(٦٢)</sup> .

وينتفع من الأحساء والرحاب في الزراعة ، وذلك باستنباط مياهها الجوفية المنحسرة عن قشرة الأرض بمسافة غير بعيدة ، والتي قد تظهر على سطح الأرض وتسيل ، والحسى سهل من الأرض يستنقع فيه الماء أو غلط فوقه رمل يجمع ماء المطر<sup>(٦٣)</sup> ، يقول ياقوت " هو الماء الذي تنشفه الأرض من الرمل فإذا صار إلى صلابة امسكته فتحتر العرب عنه الرمل فتستخرجه " <sup>(٦٤)</sup> .

وعلى أطراف الجزيرة من الشمال قامت مملكتا المناذرة والفساسنة ، وكانت تتصلان بالفرس والروم بأسباب قوية ، وقد هبئ لهما ممن دواعي التحضر ما جعلهما تتمتعان بما تتمتع به الدول المتحضرة وقتذاك من رغد العيش وهناءته ، يصور ذلك

قصيدة السابغة الذبياني في المتجرده زوج النعمان - إن صحت - وقصيدة المنخل  
اليشكري في هند أخت عمرو بن هند التي يقول فيها (٨٥) :

ولقد دخلت على الفتاة الخدر في اليوم المطير  
الكاعب الحسناء ترفل في الدمقس وفي الحرير  
فدفعتها فتدافعت مشى القطاة إلى الخدير  
ولثمتها فتنفست كتنفس الظبي البهير

فهذه أبيات تصف مدى ما وصل إليه المنازرة من الترف والتبذل إلى درجة  
التخنث ، بحيث أصبح الاختلاط بين نساتهم والأعراب أمرا ميسورا .

ويشير ما بيناه من جهود في التعامل مع مصادر المياه أن إنسان المنطقة  
العربية يقدم الدليل تلو الآخر على قدرته على أن يطوع ظروف البيئة تيسيرا لحياته ،  
ولذلك نجد أن المشروعات المائية تعددت وتنوعت بطول البلاد وعرضها . ففي  
أقصى شمال الجزيرة العربية عندما تتلاقى مع الشام نجد في بلدة ( بصرى ) كذلك "   
البركة الشرقية " لأنها تقع شرقي الطريق المستقيم الرئيس حيث تعتبر أقدم خزان  
للمياه قائم حتى الآن في المدينة ، وتشبه إلى حد ما تلك المواجهن في منطقة القيروان  
التونسية حيث تجمع مياه السيول وهي على شكل مربع تقريبا طول ضلعه ١١٤م  
وعمقها ٦م . ويستدل من الحروف النبطية المحفورة على معظم أحجار هذه البركة  
أن تاريخ بنائها يعود إلى الزمن الأول قبل الميلاد عندما أخذت المدينة بالتوسع  
والتطور وأصبحت مركزا للقوافل ، وكانت البركة متصلة بالمدينة بواسطة أنابيب  
فخارية في منتصف جدارها الغربي ، ويبلغ عرض جدرانها قرابة أربعة أمتار  
مدعومة بركائز متوصلة بعرض مترين تقريبا وتتصل البركة بالأدوية التي تجرى  
خلال فصل الشتاء والقادمة من الشرق (٨٦) .

وفى الأماكن التي تكون المياه الجوفية فيها غير بعيدة عن سطح الأرض ،  
ويكون من السهولة حفر الآبار فيها ، كان العرب في شبه الجزيرة يحفرون آبارا في

بيوتهم وفى أملاكهم للشرب ولرى مزرعاتهم إن كانت عذبة ، وللتظيف والاستعمال . ويستعان بالخدم وبالسقاين فى جلب مياه الشرب من الآبار العذبة والعيون والنهيرات ، كما حفروا الآبار فى الحصون . وقد كانت فى حصن الهجوم بئر عظيمة عميقة ، عذبة الماء ، وقد بنى الحصن من حجارة ضخمة ذكر أن طول الحجر منها سبع أذرع فى عرض ثلاثة أذرع وأقام أصحابه عليه الأسوار والأبراج ، وقد فتح فى أيام الرسول صلى الله عليه وسلم (٦٧) .

وقد وصلت إلينا نصوص عديدة فى حفر آبار أو فى شرائها وبيعها وفى تعميرها وإصلاحها ، وهى ثروة ورأس مال كبير فى جزيرة العرب ، تحبب الأرض وتدببها وتعنى الناس وتميتهم ، ولذلك كانوا إذا حفروا بئرا أو إذا ظهرت لهم مياه عذبة غزيرة يقدمون إلى آلهتهم الشكر والحمد والنور . وقد أقامت الآبار الكبيرة مدنا ، وأماتت مدنا بسبب نضوب مياهها وجفافها .

وللأهمية المذكورة للآبار فى حياة العرب ، كثرت فى لغتهم المصطلحات الخاصة بها ، من أسماء لأنواع الآبار ومن مصطلحات للحفر ولوسائل الحفر ، ومن ألفاظ للمواد التى تستعمل فى البئر وفى استخراج الماء منها (٦٨) .

## زراعة المحاصيل النباتية :

لابد من حرث الأرض وتفتيتها من الشوائب الضارة بالزرع ، ومن تليينها وذلك قبل الشروع بالبذر أو الغرس . وقد كان بعضهم يحرق الأدغال والأعشاب وما يجده على الأرض المراد زرعها من زوائد وأوساخ وذلك للتخلص منه للاستفادة منها فى تقوية التربة وزيادة نماتها ، ثم يقومون بحراستها فيندمج رمادها فى التربة ، ويصير جزءا منها ، وقد يقتلون أصول الزرع السابق وما يكون قد نبت على الأرض من نبات غريب مؤذ للزرع قبل حراثة التربة ، فإذا تم ذلك ونظفت التربة سقوها بالماء ليكون من السهل حرث الأرض وتعزيقها ، وربما لا يسقونها بل يحرثونها مباشرة ، وذلك بالنسبة للأرض التى تسقى بماء المطر ، حيث لا يتوفر الماء الجارى ، أو ماء الآبار (٦٩) . ومتى تمت الحراثة وقلبت التربة ، تهيأت للزرع

ونظمت وفقا لنوع الزرع الذى سيكون فيها على هيئة ألواح طويلة دقيقة ، أو مربعات تتخللها السواقي والقنى ، أو غير ذلك ، ثم يشرع بعد ذلك فى الزرع والغرس . ويقوم الزارع نفسه فى العادة بحرث أرضه وإصلاحها وتمهيدها للزرع ، وقد يقوم بالحرثة أشخاص مقابل أجر يدفع لهم .

ومن المصطلحات المستعملة فى الحرثة ، العزق ، وهو تشقيق الأرض بفاس ، والأداة : المعزق والمعزقة <sup>(٧٠)</sup> . والكور الحفر ، ومنها كوت الأرض كورا أى حفرتها <sup>(٧١)</sup> والحيوانات المستخدمة فى الحرثة هى الثيران والحمير والخيول والجمال ، وذلك بحسب كثرة هذه الحيوانات وقتلتها ، ويستعمل فى الحرث حيوان واحد حيناً وحيوانان حيناً آخر ، وقد وصلت إلينا بعض النصوص الجاهلية محفورا فيها صور حيوانات تحرث ، تجر المحراث ويسوقها الفلاح <sup>(٧٢)</sup> .

ولتقوية الأرض وإعادة الحيوية إليها ، استخدم الجاهليون التسميد وبالسماذ تعاد إلى الأرض بعض قوتها ، وينمو الزرع ، وقد استعملوا فى ذلك جملة وسائل كما يفعل المزارعون فى الزمن الحاضر فى بعض المناطق المتأخرة ، فاستعملوا فضلات الإنسان والحيوانات كما استعملوا الزبل <sup>(٧٣)</sup> .

ولم يكن من الممكن بالنسبة لأيام الجاهلية زرع مساحات واسعة بالحبوب أو الخضر والنخيل وبقية الشجر لصغر حجوم المياه وقلة المطر وعدم كفايته لإرواء الزرع منذ بذر بنوره حتى حصاده وللظروف السياسية والاقتصادية الاجتماعية التى كانت مهيمنة على مجتمع ذلك العهد من عدم وجود حكومات قوية كبرى ترعى الأمن وتحمى حقوق المزارع وزرعه من العبث به ، ثم تشجيعه وتقديم المعونة له ، لذلك كان من الصعب ظهور مزارع كبيرة تنتج غلات عظيمة تعرض للاستهلاك المحلى وللتصدير ، ولم يكن فى وسع أحد إنشاء مثل هذه المزارع إلا إذا كان متمكنا ذا مال ونفوذ ، وصاحب عشيرة قوية تحمى حقه ممن يريد الاعتداء عليه <sup>(٧٤)</sup> .

وقد نشرت مجلة الطبيعة Nature التى تصدر فى لندن فى العدد رقم ٥٧٥٩ المجلد ٢٨ ( مايو ١٩٨٠ ) مقالا هاما عن ( الأحافير النباتية فى المملكة العربية

السعودية ) ، ويعطى هذا المقال لأول مرة فكرة عن تجمعات الأحافير النباتية فى الجزء الأوسط من المملكة العربية السعودية بمنطقة عنيزة ، كما يبحث المقال فى الصلة أو القرابة بين هذه الأحافير النباتية بالمملكة والمجموعات النباتية الأخرى من مناطق أخرى من العالم . ولعل الأهمية الجغرافية لهذه الأحافير النباتية التى تنتمى للعصر البرمور كربونى تكمن فى المدى الذى يمكن أن يساعد فى تحديد الجزء الشمالى من قارة جوندوانا القديمة . وهذا يدل على أن شبه الجزيرة العربية كانت تقع إلى الجنوب من بحر التيش القديم ( وهو البحر الذى كان يفصل بين قارة يوراسيا ، قارتى أوربا وآسيا حالياً ) وقارة جوندوانا ، كما يدل على أن شبه الجزيرة العربية كانت مجاورة أو مماسة للنباتات التابعة لكتلة قارة جوندوانا Gondwanaland إلى الجنوب والغرب منها (٧٥) .

لقد جمعت أكثر من ١٠٠٠ عينة من مكتشف صخرى على الطريق بين مدينتى عنيزة وبريدة بالقرب من مدينة عنيزة والنباتات محفوظة كانبطاعات فى شريط من الطفل الليمونيتى الذى يتراوح سمكه بين ٥-٢٠ سنتيمترا فى داخل تتابع طبقات الطفل والرمل المتبادلة قريبا قاعدة متكون الخف .

إن متكون الخف نسب من قبل بالتقريب إلى العصر البرمى الأعلى بواسطة الأحافير الحيوانية ، وقد جمعت بعض الأحافير الحيوانية من متكون الخف الأسفل ما بين ٤٠ إلى ٧٢ مترا فوق قاعدة متكون الخف وكذلك من متكون الخف الأعلى من حوالى ٢ إلى ٢٨ مترا تحت قمة المتكون (٧٦) .

وأكثر النباتات وفرة فى التجمع النباتى من عنيزة ( وتوجد فى ثلثى العينات الصخرية تقريبا ) هى أنواع من نبات Pecopteris وتحمل بعض العينات الحوافظ البوغية Sporangia وهذه تدل على وجود صلة قرابة مع المعقد النباتى Dizeagotheca- Acitheca Complex ، كما توجد أوراق سرخسية مشابهة تعرف - ( Pecopteris hemiteloides P. unius ) معروفة بشكل واسع فى المجموعات النباتية للعصر الكربونى المتأخر والعصر البرمى فى أوربا وشرق آسيا

European & Cathaysian Floras ، لكن هذه النبات توجد أيضا مع ما يسمى بالمجموعة النباتية المختلطة التابعة لقارة Gondwanaland ، وعلى سبيل المثال تلك الموجودة في منطقة وانكى Wanki بروديسيا .

وبنفس كثرة نبات Pecoptris ، توجد أوراق على هيئة الحزام وعرضها حوالى ٥سم ، ولها تعرق موازى ودقيق تشبه نبات Cordaites Principias ، ويوجد هذا النوع من النبات بشكل واسع في النصف الشمالى من الكرة الأرضية في العصر الكربونى المتأخر والعصر البرمى المبكر . أما ثالث الأنواع النباتية في الوفرة فهو نبات Annularia Stellata ، وهذا النوع ذو التورق من النوع Calamite قد وجد بشكل واسع في شمال أمريكا وأوربا وآسيا والأوراق هنا ذات مسافات متساوية في ثباتها على النقيض من جنس Lobatannularia المميز لمنطقة Gathaysia والتي لها فضل مميز لأوراق كل لفة في مجموعتين متقابلتين (٧٧) .

ومن أهم المحاصيل التي عرفتها بلاد العرب ، الحبوب . ويطلق علماء اللغة على الحنطة والشعير لفظة ( الحب ) (٧٨) ، وهو عماد الخبز في جزيرة العرب إلى الآن . والحنطة من أهم المواد الضرورية التي يتاجر بها وهي ( قمح ) أيضا ، وقد تكلم بها أهل الحجاز ، وذكر ( ابن المجاور ) اسم موضع يقال له ( بحرى ) ذكر أنه اشتهر بزراع الحنطة ، وأن سكانه يزرعونها مرتين في السنة ، في كل ستة أشهر مرة واشتهرت الطائف بزراعة نوع من الحنطة جيدة (٧٩) .

والشعير ، أرخص من الحنطة ، ولذلك كثر استعماله في الأكل ، فمنه كان خبز أكثر الناس ولا زال خبز أهل القرى وبعض الأعراب . وقد كان يهود المدينة يتاجرون به وبديقيق الشعير : يبيعونه في مواطنهم ، وفي الأسواق ، ولا سيما سوق ( بنى قينقاع ) .

وقد تعود الناس استعمال حبوب أخرى بدلا من الحنطة والشعير والذرة وذلك في سننى الفاقة والعوز . وبعض هذه الحبوب هو من الحبوب التي تثبت بالطبيعة .

ومن جملة هذه الحبوب ( الطهف ) ، قال أبو حنيفة ( عشب ضعيف ) . دقاق لا ورق له . وقال إعرابي من ربعة ( له حب يؤكل فى المجهدة ) ضار دقيق . وقال أبو حنيفة : وهو مرعى وله ثمرة حمراء إذا اجتمعت فى مكان واحد ظهرت حمرتها وإذا تفرقت خفيت . وقال الفراء : هو شئ يختبر . وقال ابن الإعرابي : الطهف : النرة وهى شجرة كأنها الطريفة لا تثبت إلا فى السهل وشعاب الجبال ، وقال غيره : هى عشبة حجازية ذات غصنة وورق كأنه ورق القصب ، ومنبتها الصحراء ومتون الأرض وثمرتها حب فى أكمام<sup>(٨٠)</sup> .

والعدس ، هو حبة سوداء ، إذا أجدبوا طحنوها وأكلوها . وقيل هو ضرب من الحنطة يكون بناحية اليمن . وقيل هو طعام أهل صنعاء ويقال أنه العدس<sup>(٨١)</sup> والعدس معروف عندهم أيضا ويقال له ( العلس ) و ( البلس )<sup>(٨٢)</sup> .

والحمص معروف عند العرب ، وهو برى ، أى وحشى ، ينبت من نفسه ، ويستانى ، أى ينبت بزرع الإنسان . وقد علفوا به فحول الذواب والجمال . وهو نافخ ملين مدر ، يزيد فى المنى والشهوة والدم . قال بقراط : فى الحمص جوهران يفارقانه بالطبخ ، أحدهما ملح يلين بالطبع والآخر حلو يدر البول وهو يجلو النمش ويحسن اللون وينفع من الأورام الحارة ودهنه ينفع القوباء ، ودقيقه ينفع القروح الخبيثة ونقيعه ينفع أوجاع الضرس وورم اللثة ، وهو يصفى الصوت ومقو للبدن والذكر<sup>(٨٣)</sup> .

وأما ( الفطر ) ، فهو ضرب من الكمأة ، وقد ذكر علماء اللغة أنه قتال<sup>(٨٤)</sup> . وقد أخذوا هذه الفكرة من وجود فصائل سامة منه إلا أن منه ما هو غير سام . والبطيخ من المزروعات المعروفة فى بلاد العرب<sup>(٨٥)</sup> ، وعرف أيضا بـ ( الخربز ) وهى لفظة معربة من أصل فارس هو ( خربوذة ) .

وقد وردت لفظة (الخربز) من العراق بواسطة التجار العرب أو التجار الفرس الذين كانوا يتاجرون مع الحجاز أو بواسطة الرقيق المستورد من هناك والذي استخدم في الزراعة في هذه الديار (٨٦) .

والحنظل ، معروف جدا عند العرب ، وهم يداوون به ، ويعالجون به أمراضا كثيرة ، ولا زال الأعراب يقيمون له وزنا كبيرا في طبهم ويأكلونه حبا أيضا .

ومن فصائل النباتات عند الجاهليين ، النبات الشائك ، أى ذو الشوك والقناد شجر صلبى له شوكة كالإبر ينبت بنجد وتهامة ، وفى المثل ( من نون ذلك خرط القناد ) . قد نكر أن الإبل لا تأكل القناد إلا فى عام جذب فيجئ الرجل ويضرم فيه النار حتى يحرق شوكة ثم يرعيه إبله ، ويسمى ذلك القنيد . قال الشاعر يصف إبله وسقيه للناس ألبانها فى سنة المحل :

وترى لها زمن القناد على الشرى      رخما ولا يحيا لها فصل

قوله : وترى لها رخما على الشرى : يعنى الرغوة شبهها فى بياضها بالرخم وهو طير ، أبيض وقوله : لا يحيا لها فصل لأنه يؤثر بألبانها أضيافه وينحر فصلانها ولا يفتيها إلى أن يحيا الناس (٨٧) .

وقد وجد النخل فى كل مكان من جزيرة العرب فيه ماء ولو كان قليلا . وهو شجر صبور يصبر على العطش طويلا ، ومن أجل ذلك صار مثل الجمل رمزا للصحراء ، ولم ينفر العربى من زراعة أشجار الفواكه والخضر بوجه خاص . وقد تخصص بزراعة النخل المستقرون بالطبع فى بعض المناطق (٨٨) .

والنخيل هى مثل الجمال ثروة ورأس مال تدر على صاحبه ربحا وافرا ، ومن كان له نخل وافر ، كان غنيا ثريا ، وقد ربح أصحاب النخيل أرباحا طائلة من اشتغالهم بزراعة النخيل ، فالتمر هو مادة ضرورية يعيش عليها أكثر العرب ويتأدمون بها يأكلون بدلا من اللحم . وكان الأعراب يأتون أهل الريف بما عندهم من

وبسر ومن محاصيل البوادي لبيادلوه بالتمر وبالذقيق ربما يحتاجون إليه في حياتهم البدوية من حاجات ضرورية (٨٩) .

و(الأبر) تلقيح النخل ، وكانوا يلحقون النخلة بدس شمراخ الفحال في وعاء الطلع (٩٠).

ويؤكل التمر رطباً ، ويؤكل يابساً جافاً حيث يسمى في هذه الحالة ( القسب ) ويستعمل القسب بعد انتهاء موسم التمر وذهابه ، وهو أكثر تمر الأعراب لسهولة المحافظة عليه من التلف . وقد لجأ الجاهليون إلى طريقة كبس التمر للمحافظة عليه زمناً طويلاً ، ولسهولة نقله والاتجار به من مكان إلى مكان . ومن طرقهم في ذلك أنهم كانوا ينزعون نواة التمر ، ثم يكنزونه في قرب وظروف من الخوص ويقولون لذلك : التلقيف (٩١) .

والكرم شجر العنب ، والعنب ، ثم الكرم ، زرع في مواضع كثيرة من جزيرة العرب في البساتين وفي الحدائق . وفي الأماكن التي توافرت فيها المياه والجو الطيب المناسب لزراعته مثل اليمن التي اشتهرت به ، والطائف وهو أجناس عديدة ، بعضه أصيل : أى من جزيرة العرب ومن تربتها ، وبعضه مستورد ، استورد من بلاد الشام بصورة خاصة من أماكن أخرى انغرس في بلاد العرب ونبت نباتاً حسناً ، وأجاد إجادة طيبة ، جعل زراع الكروم يكثر من زراعته (٩٢) .

وكانوا ينتجون من فائض الأعناب الزبيب والنبذ ومنه الغريب الذي كان يعد من أجود العنب وأرقه وأشدّه سواداً ، ومن أنواع العنب الأخرى ، الجرشي وهو منسوب إلى جرش في اليمن ، والعنب التبوكى نسبة على تبوك ، والعنب الكلافي نسبة إلى كلاف وهي بلدة في اليمن ، والعنب التربي نسبة إلى تربة ، وأما أعناب الطائف فمنها الحمنان والكشمش والرمادى ، وكان أسود أعبر ، وكانت زراعة الكروم تدر أرباحاً طائلة وبخاصة بعد عصرها في " موهتين " ، وهي المعصرة ، وتحولها إلى نبذ ، وكانت المعاصر تتألف من حجارة قطعت من الصخر ، ويوضع

العنب فى تقب بالحجر الأعلى وبإدارته يجرى العصير إلى الموضع الذى يسيل منه إلى وعاء آخر يودع فيه العصير<sup>(٩٣)</sup> .

والتين من الأشجار المعروفة فى الحجاز وفى اليمن ، وفى مواضع أخرى من جزيرة العرب وأجناسه كثيرة ، برية وريفية ، وسهلية ، وجبلية ، ويكون أخضر اللون ، أو أصفر وأحمر وأسود ، وهو كثير بالسراة مباح يؤكل رطبا ويزيب ويدخر<sup>(٩٤)</sup> .

ومن أنواعه الجداسى وهو تين أسود ليس بالحالج ، والقارى ، وهو أبيض متوسط بالطيار وهو كبير الحجم ، والفيلحاني أيضا ، وهناك تين وحشى وكان ينبت فى الجبال وشواطئ الأودية ، وهو أصغر تين أنواع التين<sup>(٩٥)</sup> .

وقد عنى أهل الجاهلية بتحسين وبتنوع وبتطعيم أشجارهم المثمرة وكان منهم مثل أهل الطائف واليمن من استورد الشجر المثمر الجيد من الخارج من بلاد الشام ومن أفريقية والهند ومن المواضع التى اشتهرت بصنف جيد من أصناف الشجر من جزيرة العرب ، وبذلك نوعوا ثمرهم وحسنوا أصناف شجرهم ، ويظهر أثر استيراد الشجر من خارج جزيرة العرب ومن الأسماء الأعجمية التى عرفت بها فى الجاهلية والتى تحدثت عن المكان الذى استوردت منه<sup>(٩٦)</sup> .

وقد ذكر أهل الأخبار أسماء عدد من الأشجار نبتت ونمت نموا طبيعيا ، منها ما نبت على الجبال والمرتفعات ، ومنها ما نبت فى البوادي فى التهامم فهى من الأشجار الوحشية التى لم تررعها يد إنسان ، بعض منها مثمر يستفاد من ثمره ، وبعض منها مثمر ، غير أنه لا يمكن الاستفادة من ثمره ولا ينتفع به إنسان أو حيوان ، وبعض منه عقيم غير مثمر .

وقد صنع أهل الجاهلية من النباتات البرية والأشجار الجبلية ، الفحم ، وهم لا يزالون يصنعونه من هذه المواد وذلك بإشعالها أولا ثم بإطفاء جمرها للاستفادة من الفحم الحاصل من ذلك فى أغراض شتى ويحمله أصحابه إلى أهل المدر لبيعه لهم ، أو لمقايضته مع الباعة بمواد أخرى يحتاجون إليها . وقد أدى الإسراف فى ذلك وفى

قلع الأشجار البرية النابتة بالطبيعة دون التعويض عنها بزراعة غيرها فى مكانها إلى تحول الأراضى الشجراء إلى أراض جرداء (٩٧) .

وقد استعمل العرب بعض أجزاء بعض النباتات أداة فى الكتابة ، وأشهر أنواع النبات التى صلحت لهذا : العسيب ، وجمعه عسب ، بضم تين ، وهو السعفة أو جريدة النخل إذا يبست وكشط خوصها ، فمن الشعر الجاهلى الذى ورد فيه ذكر العسيب قول لبيد يصف كاتباً (٩٨) :

متعود لحن يعيد بكفه      قلما على عُسْب ذبْلان وبان

وقول امرئ القيس :

لمن طلل أبصرته فشحانى      كخط الزبور فى العسب اليمانى

وقريب من العسيب : الكرنافة ، وجمعها : كرانيف ، وهى أصول السعف الغلاظ العراض اللاصقة بالجذع . وقد ورد أن الوحى كان يكتب على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم على العسب والكرانيف .

وكان هناك " القلم " ، وهو فى الجاهلية ، كما تصفه النصوص مصنوع من القصب يقطع ويقلم أو يُبرى ، ثم يغمس فى مداد الدواة ويكتب به ، وفى ذلك كتب عبد الله بن حنشل (٩٩) " رأيتهم يكتبون على أكفهم بالقصب عند البراء " ، وأكبر الظن أنهم كانوا يستخدمون ضرباً آخر من الأقلام يكتبون به - دون حبر - حين تلجئهم الحاجة إلى أن يسجلوا بعض شؤونهم فى عجلة من أمرهم ، ودون أن يعدوا للأمر عدته ، فالشاعر الجاهلى الذى كان يحتضر فلم يجد وسيلة للكتابة إلا أن يتخذ من رحل قاتله صحيفة يكتب عليها ما كان يريد ، والصحابى الذى أوصى لرسول الله صلى الله عليه وسلم فكتب وصيته فى مؤخر رحله ، والتابعى الذى كان يسمع الحديث من بعض الصحابة فى الليل فيكتبه فى واسطة رحله حتى يصبح فينسخه . . . هؤلاء جميعاً لم يكونوا معدين للكتابة أمرها ، ولم يكونوا متخزين لها أسبابها ، وليس مما يقبله عقل أن يكونوا فى مثل أحوالهم تلك يحملون معهم قصبهم المقطوط المبرى ودُوهم الملقى

بالمداد ، وإنما كانوا - فيما يرجح الأسد - يكتبون بمادة تترك لونها أو أثرها على الرحل ، ولعلها مادة طباشيرية ، أو فحمية أو رصاصية .

وفهم من بعض النصوص الجاهلية أن الزراعة كانت تتعرض لآفات زراعية خطيرة تقضى على المزروعات فى بعض الأحيان ، وطالما وجدنا أصحابها يسألون الآلهة وقاية مزروعاتهم وحمايتها وإنزال البركة عليها ومنحهم غلات وافرة كثيرة . وقد يكون من بين هذه الآفات : الحشرات والجراد وانحباس المطر . ومن طرق هذه الحماية فى نظرهم تسمية الزرع باسم إله ليكون فى حمايته ورعايته ، وقد يخصص نصيب منه لذلك إلهة فى مقابل حمايته ورعايته ، وقد يخصص نصيب منه لذلك الإله فى مقابل حمايته لها (١٠٠) .

وإذا أخذنا منطقة تتوافر بها أشياء كثيرة مما ذكرنا ، سجد مدينة يثرب ، فمن أهم مزروعاتها النخيل : يغرسونه فى مغارس كبيرة ، وقد يحوطنها فتكون حدائق . وكانت أرض المدينة صالحة لزراعة النخل حتى ليقال أن ودية (١٠١) النخيل تثمر بعد عام من زرعها ، وعلى إنتاج النخيل كان اعتماد السكان ، فكان من التمر جل طعامهم ، كما كان به التعامل بينهم فتدفع منه الأجور وتسد الديون ، كما كانوا ينتفون بكل شئ فى النخلة : يأكلون جمارها ويستخدمون جريدها فى سقوف منازلهم ، ويعملون من خوصها القفف ويستخدمون جنوعها أعمدة لبيوتهم وحمالات لسقوفها ، ويستخدمون الشوك والكرانيف للوقود ، كما كانوا يرضخون النوى بالمراضح حتى ينكسر فيكون علفا للإبل ، فالنخلة من أكرم الأشجار عليهم ، حتى لقد شبه النبى (ﷺ) المؤمن بالنخلة ، كل ما فيه خير (١٠٢) .

وتمر المدينة متعدد الأنواع ، منه الجيد ، ومنه غير الجيد ، ومن أشهر أنواعه الصيحاني وابن طاب ، وعنق زيد ، والعجوة ، والصرقان وهو نوع من التمر أحمر هو أوزن التمر كله ، والجنيب وهو أجود أنواع التمر . وقد كان ليهود بنى النضير نوع فاخر من التمر يقال له اللوز أصفر شديد الصفرة ترى النواة فيه من اللحم .

والشعيرة هو الغلة بعد التمر ، وكانوا يزرعونه فى حقول ولكنهم عادة كانوا يزرعونه تحت النخيل ، وكان عليه اعتمادهم بعد التمر .

وإلى جانب هاتين الغلتين الرئيسيتين ، كان يزرع قليل من القمح والكرم وبعض أنواع الفاكهة الأخرى من رمان وموز وليمون وبطيخ وقاؤون ، كما كانت تزرع بعض الخضروات والبقول كالقرع واللوبيا والساق والبصل الثوم والقثاء (١٠٣) .

### أثر الحياة الزراعية على المعاملات الاجتماعية والحياة الثقافية :

كانت للأحوال التى عليها حياة الزرع والنبات والإرواء أثارها بطبيعة الحال على شخصية العربى الجاهلى وفى نظرتة إلى نفسه وإلى الحياة ، وعلى تكيف معاملته مع الغير كذلك ، كما يتضح لنا مما يأتى :

- فعلى الرغم من قلة المناطق الزراعية وغلبة الحياة الصحراوية فإننا نجد عرب الجاهلية قد توجهوا فى عباداتهم إلى أشياء مما ينتمى إلى عالم الزراعة ، فقد عبد بعضهم الشجر كما عبد الصنم ، وهم فى هذا وذلك يعتقدون أن قوة إلهية حلت فى المعبود ، كما اعتقد قدماء المصريين فى العجل إبليس ، فكان الإله عشتار يعبد فى الأصل لا بوصفه إله الزهرة بل بوصفه إلهاً أرضياً ، إله سقى النخيل وجنى الثمار والخصب والنتاج ، وهذا ظاهر مما ورد فى النقوش المعينية من ألقاب ونعوت كان يوصف بها ، فمن ذلك أنه كان يدعى واهب الماء ، وجانى الثمار ، وجامع الحصاد ، فهو من أقدم الآلهة التى عبدت فى جزيرة العرب ، وقد انتقلت عبادته إلى جميع أنحاء العالم السامى (١٠٤) .

ثم عبد الإله عشتار فى صورة مؤنث على أنه إلهة لا إله ، فكانت عشتار إلهة الخصب والنتاج ممثلة فى النخل والماء ، وقد وردت بهذا المعنى فى النقوش المعينية ، وكانت تدعى فى البابلية منتجة الخضرة والنبات . وقد قرنت بعبادة النخل والأشجار عند الساميين منذ قديم الزمان حتى كانوا يطلقون اسمها على كل صنم

مصنوع من خشب كما ورد مرارا في التوراة ، وكانت تمثل عادة بجذع شجرة فصلت عن الأغصان ، وكان الساميون يعتقدون أن هذه الآلهة وما شاكلها تسكن جذع الأشجار ، وأن أرواحها قادرة على البطش والانتقام ، وقد ظل هذا الاعتقاد إلى ظهور الإسلام . وقد سميت في شمال الجزيرة بأسماء أخرى .

منها العزى ، وكانت شجرة بوادى نخلة إلى الشرق من مكة عندها وثن تعبده غطفان ، وسدنتها من بنى صرمة بن مرة ، وكان الذى اتخذها ظالم بن أسعد وبنى لها بيتا ولها منحر ، ينحرون فيه هداياهم ، يقال له الغيغب ، وكانت العزى أعظم الأصنام عند قريش ، يزوونها ويهدون لها ويتقربون عندها بالذبايح ، كما عبدتها غنى وباهلة وخزاعة وجميع مضر وبنو كنانة وغطفان من القبائل العربية . وكان العرب إذا فرغوا من حجهم وطوافهم حول الكعبة لم يحلوا حتى يأتوا عزى ، فيطوفون بها ويعكفون عندها يوما (١٠٥) .

وقد اعتقدوا أن العزى شيطانة " تأتى ثلاث سمرات (١٠٦) ببطن نخلة فلما افتتح النبى صلى الله عليه وسلم مكة بعث بخالد بن الوليد فقال له : أيت ببطن نخلة فإنك تجد ثلاث سمرات ، فاعضد الأولى فاتاها فعضدها ، فلما جاء إليه قال : هل رأيت شيئا ؟ قال لا ، قال : عضد الثانية ، فاتاها فعضدها ، ثم أتى النبى عليه الصلاة والسلام فقال : هل رأيت شيئا ؟ قال لا ، قال : فاعضد الثالثة ، فاتاها فإذا هو بحبشية نافشة شعرها ، واضعة يديها على عاتقها ، تصرف بأنيابها وخلفها دببة بن حرمى الشيباني - وكان سادنها - فلما نظر إلى خالد قال :

أعزاء شدى شدة لا تكنبى      على خالد ألقى الخمار وشمرى

فقال خالد : يا عز كفرانك لا سبحانك ، إنى رأيت الله قد أهانك ، ثم ضربها ففلق رأسها فإذا هى حممة ، ثم عضد الشجرة وقتل دببة السادن ، ثم أتى النبى صلى الله عليه وسلم فأخبره ، فقال : تلك العزى ، ولا عزى بعدها للعرب ، أما أنها لن تعبد بعد اليوم (١٠٧) .

ونحن لا نورد هذه القصة إيماناً بتفاصيلها ، وإنما نذكرها لبيان الأثر الذي كان للعزى فى نفوس العرب .

وكانت قریش تطوف بالكعبة وتقول : واللات والعزى والثالثة الأخرى ، فإنها الغرائيق العلاء ، وإن شفاعتهن لترجى (١٠٨) .

ومنها ذات أنواط ، وهى سمرات من الطلح الشائك لا يظل ولا يثمر ولا ترعاه الإبل ، إلا إذا عضها الجوع لأنها تسقم منه ، لكن سلطانها ظل إلى ما بعد الإسلام يدل على ذلك قول المعرى فى رسالة الغفران . وذات أنواط شجرة كانوا يعظمونها فى الجاهلية ، وقد روى أن بعض الناس قال : يا رسول الله ! اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط . وقد ذكرها المعرى فى شعره للدلالة على أثر الحظ فى الحياة (١٠٩) :

والجد يدرك أقواما فيرفعهم      وقد ينال إلى أن يعبد الحجرا

وشرفت ذات أنواط قبائلها      ولم تباين على علاتها الشجرا

وقال ابن الأثير فى سبب تسميتها : أنها سميت بذلك لأن المشركين كانوا ينوطون بها سلاحهم ويعكفون حولها .

- كذلك أثرت هذه الحياة على أخلاقهم ، فقد عاش العربى فى الصحراء وهو فى جهاد مستمر وكفاح طويل مرير محافظة منه على حياته فليس بالصحراء من معالم الحياة إلا النذر اليسير ، وليس بها أنهار جارئة أو وديان خصبة مسرعة ، أو حدائق غناء ، إلا فى أمكنة قليلة تعتمد على الغيث ، وبعض العيون المتفجرة ، ولذلك اشتد حرصه على الماء وسعى فى سبيله سعيا متواصل لا هوادة فيه ، واقتضى ذلك منه رحيلا دائما فى فيا فى واسعة ، يواجه مخاطرها ، فى كل ثانية ، ويستقبل متغيرات الطبيعة أينما سار :

ومن يك مثلى ذا عيال ومفترا      منى المال يطرح نفسه كل مطرح

ليبلغ عذرا أو يصيب رغبة      ومبلغ نفسى عذرها مثل منجح

فامتزج بهذه الطبيعة والصحراء امتزاجا تاما ، وصار قبله جلدا لا يرهب ولا يفزع ، وصارت عنده مناعة ضد الضيم والتبدل ، لأنه إن كف عن السعى فى سبيل الماء الذى هو قوام حياته ، هلك ، لذلك عظمت قوى الكفاح فى العربى ، كما عظمت ثمرات هذه القوى فى نفسه ، فصار من أصح أهل الأرض بنية ، وأوفرهم قوة ، وأروعهم قامة وأبينهم عاقية ، وأكثرهم احتمالا لما يطاق من الشدائد والمشقات ، وقد جعله هذا الصبر الذى فرضته عليه الصحراى يعدل العشرات من الناس من حيث الطاقة البشرية (١١٠) .

وإذا تفحصنا حياة العربى منذ طفولته أدركنا أن الشجاعة ولدت معه ، وأنه شب وكبر وهى تتمشى فى نمه ، وكيف لا وقد ربي فى بيئة تتمدح بالبطولة والإقدام ، وحسن البلاء فى حماية النمار والأخذ بالنأر ، وبالعدوان فى كثير من الأحيان ؟ وطالما فزع طفلا على قعقة السلاح ، وصيحات المقاتلين ، وسمع الأفاصيص عن شجعان من القبيلة حموها ، وردوا المغيرين عليها ، أو هجموا على أخرى وأجلوها ، ثم شب فرأى الرماح تشتبك ، والسيوف تتقارع ، والأبطال فى ميدان الوغى تتنازع ، ثم كبر فشارك فى المواقع ، وأفنى العمر فى المعارك ، فلا عجب أن كانت الشجاعة خلقا عاما عند العرب (١١١) .

- والشجاعة تتقضى أن يكون الفتى ذا عزيمة وحزم ، لا يتردد ولا يتلوم ، وإلا قضى عليه ترده وتقاعسه ، فهو يناجز فرسانا شجعانا ، فلا بد أن يكون قوى الجنان نافذ الرأى ذا بصيرة فى المآزق ، وإذا ضاقت عليه السبل ولم يجد من الموت بدا ، رأى العار أن يفر ويولى ظهره للمحن والشدائد ، بل عليه أن يقتحم غمراتها ، وأن يعمد إلى حيله ودهاته أو إلى سيفه يفرج به الكربة ويزيل الغمة ، ففعل فى ذلك نجاته لأنه لا يدرى إذا هرب كم بقى له من العمر (١١٢) .

- والكرم من السجايا التى نبتت فى الصحراء ، ونمت نموا طبيعيا واحتلت مكانة سامية فى نفوس العرب ، وهو من الصفات التى ترشح صاحبها للميادة والرئاسة ، وذلك لأن الحياة فى الصحراء - كما أشرنا إلى ذلك كثيرا - فيها شبح الغافة والجوع فى بعض أنحاء الجزيرة العربية ، فإذا لم يتقدم من عنده فضل من غنى

وزاد لإنقاذ حياة سكان تلك البقاع المجذبة هلكوا جوعا . فعظم العرب الكرم لأنهم جميعا معرضون لمثل تلك المحن التي تصيبهم بين آونة وأخرى والتي لا يجدون لها حيلة إلا بتقدم نوى اليسار والجد لإغاثتهم ، فكانهم بتعظيمهم الكرم وتقديمهم الأسخياء للرياسة إنما يدافعون عن كيانهم وحياتهم (١١٣) .

وقد كان للعرب في كرمهم أمور تدعو إلى الإكبار فضلا عن دلالتها على تأصل تلك السجية فيهم تدل على صدق تطبيقهم لها . من ذلك أن أحلى ما يكون الكرم عندهم في ليالى الشتاء الباردة وقد ألم بالناس الجذب والقحط والجفاف ، وكادت كلابهم تتحجر من شدة البرد القارص ٠٠٠ في هذه الأحوال الصعبة يفتخر العرب بإطعامهم الطعام ودعوة الناس إليه ، وتعميم الدعوة إلى الطعام ليحضره كل من له إليه حاجة ، فلا يعد الواحد منهم كريما إذا اختص بدعوته ناسا دون آخرين (١١٤) .

وكان من علائم كرمهم رغبة كرمائهم عن الطعام ، وكراهيتهم له إذا لم يشاركهم فيه طاعم من الضيفان أو من الجيران .

ومن سمات كرمهم أن يبرزوا قدورهم أمام بيوتهم ليلا ليهتدى بها الضيفان ، فيأووا إليهم ، قال حاتم :

لا تسترى قدرى إذا ما طبختها      على إن ما تطبخين حرام  
وقول آخر (١١٥) :

ولست بأكل وحدى حميتى      وجار البيت ليس له حميت

ولقد عبرت غنية بنت عفيف أم حاتم الطائي في ردما على من لامها على كرمها عن هذا المعنى ، وهو أنها ذاقت الجوع مرة ، فألت على نفسها ألا ترد بعد اليوم جائعا فقالت :

لمعرك قد ما عضنى الجوع عضه      فأليت ألا أمنع الدهر جائعا

فقولاً لهذا اللامى اليوم اعفنى      وإن أنت لم تفعل فعض الأصابع

- وكانوا لا يقدرون شيئا كما يقدرون الوفاء ، فإذا وعد أحدهم وعدا أوفى به وأوفت معه قبيلته بما وعد ، ومن ثم أشادوا بحماية الجار لأنه استجار بهم وأعطوه

عهدا أن ينصروه ، وجعلهم ذلك يعظمون الأحلاف فلا ينقضونها مهما قاسوا بسببها من حرب ، وبلغ من اعتدادهم بهذه الخصلة أن كانوا يرفعون لمن يغدر منهم لواء في مجامعهم وأسواقهم ، حتى يلحقوا به عار الأبد<sup>(١١٦)</sup> .

وليس هناك خلة تؤكد معنى العزة والكرامة إلا تمدحوا بها ، فهم يتمدحون بإغاثة الملهوف وحماية الضعيف والعمو عند المقدرة ، كما يتمدحون بالأنفة وإياء الضيم ، وكيف يقبلون الضيم وهو أهل حرب وجلاد ؟

- وكان من أثر البيئة الطبيعية أنهم لم يعرضوا علينا معانيهم الحسية جامدة في أديهم ، بحيث تنشر الملل في نفوسنا ، فقد أشاعوا فيها الحركة ، وبذلك بثوا فيها كثيرا من الحيوية ، وما من شك في أن هذه الحركة مشتقة من حياتهم التي لم تكن تعرف الثبات والاستقرار ، فهم دائما راحلون وراء الغيث ومساقط الكلا ، ومن ثم كانوا إذا وصفوا الحيوان وصفوه متحركا لا واقفا جامدا<sup>(١١٧)</sup> .

وهذه الحركة في حياتهم التي تعنى عدم الثبات والاستقرار ، وبالتالي تعنى عدم التوقف عند شيء وإطالة النظر فيه هي التي جعلت معانيهم سريعة ، أو على الأقل كانت من أهم البواعث على سرعتها ، فالشاعر لا يقف طويلا عند المعنى الذي يلزم به ، بل لا يكاد يمسه حتى يتركه إلى معنى آخر ، فحياته لا تثبت ولا تستقر ، وهو كذلك في معانيه لا يثبت ولا يستقر ، بل ينتقل من معنى إلى معنى في خفة وسرعة شديدة ، ومن ثم غلب عليه الإيجاز ، فهو لا يعرف الإطناب ولا ما يتصل به من هدوء وسكون ، ولعل هذا ما جعل البيت في قصائدهم وحدة معنوية قائمة بنفسها ، وتتألف القصيدة من الأبيات أو البيوت المستقلة التي يكفى فيها كل بيت غالبا بنفسه ، غير متوقف على ما يسبقه ولا على ما يلحقه إلا نادر<sup>(١١٨)</sup> .

- هذا وقد كثرت الحروب بين العرب في سبيل العيش ، فاختلجوا على المرعى والماء وزادت حرارة الصحراء في حدة انفعالهم واستجابتهم لدواعي القتال ، ولذلك تراهم مغيرين أو مغارا عليهم ، وفي الغارات تتعرض نعمهم للنهب ، فيفقدون بذلك المورد البدي يقوم بأودهم وينكبون في مقومات حياتهم ، فإن لم يسرع الكرماء لإصلاح حالهم تعرضوا للهلاك المبين .

وحتى تستطيع القبيلة مواجهة خصومها في حروبها كانت تدخل في حلف ،  
 فظهرت " اتحادات الأحلاف " ، ويظن أن هذه الأحلاف لعبت دورا كبيرا في تكوين  
 القبائل إذ كانت العشائر الضعيفة تنضم إلى العشائر القوية الكبيرة لتحميها وترد  
 العدوان ، ومن هنا كتب أحد الباحثين " فلما رأَت القبائل ما وقع بينها من الاختلاف  
 والفرقة وتنافس الناس في المأ والكأ ، والتماسهم المعاش في المتسع ، وغلبة  
 بعضهم بعضا على البلاد والمعاش واستضعاف القوى الضعيف ، انضم الذليل منهم  
 إلى العزيز ، وحالف القليل منهم الكثير ، وتباين القوم في ديارهم ومحالهم ، وانتشر  
 كل قوم فيما يليهم " (١١٩) .

وبمجرد أن تدخل القبيلة في حلف يصبح لها على أحلافها كل الحقوق ، فهم  
 ينصرونها على أعدائها ، ويردون كيدهم عنها في نحورهم ، وقد تتفصل بعض قبائل  
 الحلف لتتضم إلى حلف آخر يحقق مصالحها ، ومن ثم كنا نجد دائما أحلانا تضعف ،  
 وتحل محلها أحلاف أخرى ، وقبائل لم تدخل في أحلاف ، ولذلك سميت " جمرات  
 العرب " لما كان فيها من شجعان ويكفونها في الحروب ، على أن هذا كثيرا ما كان  
 يؤول بها إلى أن تنهك في المعارك ، أما القبائل المتحالفة فكانت تهاب لخشونة  
 مسها !

- وكان للبيئة العربية أثرها كذلك على " الأمثال " السائرة ، وعلى سبيل  
 المثال ، ففي بيئات الحجاز الزراعية كخيبر والمدينة حيث تنتشر النخيل نجد أن  
 الحجازيين قد اتخذوا من " التمر " مادة للأمثال يعالجون بها أطرافا من شؤونهم  
 المعاشية وحياتهم الاجتماعية ، فقالوا " كمستبضع التمر إلى خيبر " ، ويقال للدلالة  
 على خطأ هذا الفعل ، فخيبر مصدر التمر ، والذي يجلب إليها التمر مخطئ ، أعظم  
 الخطأ ، مقضى على تجارته بالبوار والكساد ، وهذا من بديهيات التجارة الشائعة ،  
 والشئ يجب أن يوضع في موضعه ، ويوجه لمن هو في حاجة إليه (١٢٠) .

وقالوا " كل خاطب على لسانه تمرة " ، وفي التمرة حلوة والخاطب عادة  
 يحلو لسانه حتى يحوز الرضا ، ويفوز بحبة قلبه ، وهو يضرب للذي يلين كلامه إذا  
 طلب حاجة .

ومن الأمثال ذات المغزى " رب زارع لنفسه حاصد سواه " ، قاله عامر بن الظرب ، وذلك أنه خطب إليه صعصعة بن معاوية ابنته فقال : يا صعصعة ، إنك جئت تشتري منى كبدى وأرحم ولدى عندى ، منعتك أو بعتك ، النكاح خير من الأيمة والحسب كفاء الحسب ، والزوج الصالح بعد أبا ، وقد أنكحتك خشية ألا أجد مثلك ، ثم أقبل على قومه فقال : يا معشر عدوان ، أخرجت من بين أظهركم كريمكم على غير رغبة عنكم ، ولكن من خط له شئ جاءه ، رب زارع لنفسه حاصد سواه ، ولولا قسم الحظوظ على غير الحدود ما أدرك الآخر من الأول شيئا يعيش به ، ولكن الذى أرسل الحيا أنبت المرعى ، ثم قسمه أكلا ، لكل فم بقلة ومن الماء جرعة إنكم ترون ولا تعلمون ، لن يرى ما أصف لكم إلا كل ذى قلب واع ولكل شئ راع ولكل رزق ساع<sup>(١١١)</sup> .

- كذلك شكلت الموارد الزراعية قوام الحياة التجارية لدى العرب ، وكان الجاهليون مثل غيرهم من الشعوب السامية نشطون فى عالم التجارة ، والتجارة تكاد تكون الحرفة الوحيدة عند العرب التى لم ينظر العربى إليها وإلى المشتغل بها نظرة استهجان وازدراء وانتقاص ، بل اعتبرت عندهم من أشرف الحرف قدرا ومنزلة .  
ولعل ما جعل للموارد الزراعية قيمة فى الحياة التجارية فى ذلك العصر قيام التجارة على المقايضة ، وهى المعارضة ، إذا عارض التاجر أى شخص متاعا بمتاع آخر ، وبادل سلعة بسلعة أخرى ، وهى الطريقة القديمة فى الاتجار قبل أن يتعامل بالذهب والفضة وزنا فى تقييم قيم الأشياء ، وقبل أن تعرف النقود التى ولدت من التعامل بالذهب والفضة .

وقد ورثت سبأ من معين مركزها التجارى ، وتزعمت الحركة التجارية إلى القرن الثانى قبل الميلاد ، وكانت هى السوق الكبرى للمتاجر ، وكان السبئيون هم حلقة الاتصال بين الهند والحبشة وشرقى إفريقيا ، وبين شمالى آسيا وشمالى إفريقيا ، وكانت عمان الإقليم الشرقى لهذه المتاجر<sup>(١١٢)</sup> .

وقد استعانوا بالفينيقيين زمنا طويلا فى بيع سلعهم ، إذ كانت لغتهم متقاربة ، وكان الفينيقيون هم حلقة الاتصال بين السبئيين وجنوبى أوربا ، وطالما تنافس العرب والبابليون فى الاتجار مع الهند .

واستطاع السبئيون أن يبسطوا نفوذهم على اليمن كلها ، وحضرموت وما جاورها ، ومكن لهم هذا النفوذ من السيطرة على منافذ التجارة الهندية القادمة إلى الموانى ، وعلى المراكز المشرفة على طرق القوافل .

ولسنا نشك فى أن اليمنيين أثروا من مركزهم التجارى ، ومن خصوبة أرضهم ، فعاشوا فى سعة لم ينعم بها غيرهم من سكان شبه الجزيرة العربية ، ولا سيما كبرائهم الذين كان لهم حظ من رفاهية العيش والتعم والافتتان فى الأكل .

وقد أشار المؤرخ ( بلينيوس ) Pliny إلى أن المعينيين كانوا يملكون أرضا غنية خصبة يكثر فيها النخيل والأشجار ، وكان لهم قطعان كثيرة من الماشية ، وأن السبئيين كانوا أعظم القبائل ثروة بما تنتجه غاباتهم بالأشجار من عطور ويما يملكونه من مناجم الذهب والأراضى المزروعة المرواة ، وما ينتجونه من العسل وشمع العسل كما كانوا ينتجون العطور (١٢٣) .

وكان ( الطيب ) من أهم المواد التى تاجر بها العرب الجنوبيون ، تاجروا بتصديره إلى خارج العربية الجنوبية إلى بلاد الشام ومصر والعراق وتاجروا به فى الداخل أى فى العربية الجنوبية ، وفى مواضع أخرى من جزيرة العرب ، ويستخرج الطيب من أنواع متعددة من الأشجار ، ويجلب بعضه من الخارج من الهند وأفريقية ، ويصدر إلى مصر وأسواق بلاد الشام والعراق .

والبخور من المواد الثمينة ذات السعر العالى بالنسبة لتجارة ذلك الوقت ، والبخور وما يتبخر به ، وثياب مبخرة مطيبة ، وقد كانوا يحرقون البخور فى المباخر ، ويبخرون به المعابد والأصنام ، ومنه ( القسط ) الذى كان منه نوع عربى ، وورد ( قسط ظفار ) نسبة إلى ( ظفار ) قرب مرباط بالعربية الجنوبية . وقد نسب إليها هذا ( العود ) رغم أنه لا ينبت بها إذ كان يأتى من الهند .

وقد اهتم باحثون أجانِب بتجارة البخور من جنوب الجزيرة على الشمال وخاصة على الرومان ، ويمكن تسجيل بعض الملاحظات على ما ورد في هذا الشأن <sup>(١٢٤)</sup> :

١- أن تجارة البخور كانت ترتبط في أذهان سكان العالم القديم ، في حوض البحر الأبيض المتوسط بالعرب لأنهم - فيما يبدو - كانوا وحدهم الذين يحملون أصنافه إلى شواطئ ذلك البحر .

٢- أن أهمية تلك التجارة وعلاقتها بازدهار حياة العرب جعلتهم يمنون القوانين الكفيلة بحمايتها من العبث والتخريب ، بل والتهريب ، وإنهم اعتمدوا أيضا على المعتقدات الدينية لضمان تلك الحياة حيثما كان تطبيق القانون مستحيلا .

٣- أن العرب كانوا حريصين على أن يكتفوا أسرار تلك التجارة المربحة التي كانوا يحتكرونها ، وأنهم إذا أخرجوا بالسؤال عنها تعمدوا الغموض والإبهام في إجاباتهم ، ولعلمهم أيضا تعمدوا أن يحيطوها بالأساطير على سبيل الدعاية .

والعنبر من المواد الهامة ، وللإخباريين آراء في أصل العنبر وأجوده ما يجاب من شحر عمان <sup>(١٢٥)</sup> .

وكان ( المر ) من المواد الثمينة الغالية في قائمة المنتجات العربية التي تباع داخل البلاد العربية وخارجها وقد أقبل العبرانيون والمصريون على استيراده وشرائه لاستعماله في الأغراض الدينية ، فاستعمل في المعابد وفي التخنيط .

و( الكندر ) ضرب من العلك ، وقيل هو اللبان ، وقد عولج به <sup>(١٢٦)</sup> ، واللبان مشهور في العربية الجنوبية ، وهو من حاصل الهند والعربية الجنوبية وأفريقيا وهو ضرب من الصمغ ، ونكر أنه الكندر ، وأنه يصنع من عصير جملة أنواع من الشجيرات ، ويستخرج من عصير يستنبط بشق قشر الشجرة وتجفيف العصير ، وقد استخدم في المعابد ، وأشير في سفرى ( اشعيا ) و ( أرمياء ) إلى أن العبرانيين كانوا يستوردونه من ( شبا ) أى من أرض ( سبأ ) وأشهره من شحر عمان ، وأحسنه ما

يجمع من موضع تجمعه قبل سقوطه على الأرض ، أو تلوته بمادة غريبة قد تتساقط عليه (١٢٧) .

وقد ساعد على هذا الرواج في تبادل السلع ، قيام عدد من الأسواق الكبرى الشهيرة ، وكانت هذه الأسواق تستمر طوال العام ينتقلون من بعضها إلى بعض ، ومن أشهر أسواقهم العربية في الحجاز (١٢٨) :

١- سوق عكاظ ، وكانت تعقد في أول ذي القعدة إلى العشرين منه ، وهي أعظم أسواقهم ، وقد اتخذت سوقا بعد عام الفيل بخمس عشرة سنة وظلت قائمة في الإسلام حتى نهاها الخوارج عام ١٢٩ هـ حين خرجوا بمكة مع المختار بن عوف .

٢- سوق مجنة : ومجنة موضع يمر بالظهران أسفل مكة على أميال منها ، وكانوا ينتقلون إليها من عكاظ فيقيمون فيها إلى نهاية ذي القعدة .

٣- سوق ذي المجاز بمنى ، خلف عرفة ، وكانوا يقيمون فيها ثمانية أيام من ذي الحجة ، ثم يقفون بعرفة في اليوم التاسع .

٤- دومة الجندل ، وتتعقد في ربيع الأول ، ويحدد البغدادى ميعاد انعقادها فيجعله اليوم الخامس عشر من ربيع الأول من كل عام .

٥- مكة ، وهي سوق دائمة .

٦- سوق خيبر ، وتتعقد بعد أيام الحج كما روى الألوسى .

٧- سوق منى .

فضلا عن أسواق أخرى بالبحرين وعدن وغيرها .

وأبرز ما كانت تقوم به هذه الأسواق أنها لم تقتصر على البعد الاقتصادي وحده من حيث تبادل السلع التجارية ، بل كانت كذلك ميدانا فسيحا لتبادل الآراء وعرض الأفكار ، التشاور في المشكلات ومجالا للمفاخرات ، والمنافرات والمحاورات ، ومعرضا لإلقاء الشعر والمباهاة بالفصاحة .

ويعتبر " سوق عكاظ " ، وهي السوق التجارية الكبرى لعامة أهل الجزيرة ، يحمل إليها من كل بلد تجارته وصناعته كما يحمل إليها أدبه ، فإليها يجلب الخمر من

هجر والعراق و غزة وبصرى ، والسمن من البوادي ، ويرد إليها من اليمن البرود الموشاة والأدم ، وفيها الغالية وأنواع الطيب وأدوات السلاح ، ويباع فيها الحرير والوكاء والحذاء والمسير والعدنى يحملها إليها التجار من معانها ، وفيها من زيوت الشام وزبيبها وسلاحها ، اعتادت قريش أن تحمله في قفولها إلى مكة . وكانت تجارة فارس يصل منها أشياء إلى عكاظ ، فان النعمان ابن المنذر ملك الحيرة كان يبعث إلى سوق عكاظ كل عام لطيمة ( العير المحملة بمسك وغيره ) في جوار رجل شريف من أشرف العرب يحميها له من كل معتد حتى تصل سالمة إلى عكاظ فتباع ويشترى بثمانها ما يحتاج إليه من أدم ( جلود ) الطائف وسائر المتاع في عكاظ من حرير وعصب مسير ، وبيعت فيها حلة ذى وزن ، فاشتراها حكيم بن حزام ليهدبها إلى الرسول (ﷺ) (١٢٩) .

وإذا كان من شأن البيئة الصحراوية أن تفرض نظاما اجتماعيا يتمثل في القبيلة ، واقتراد وجود حكومة ودولة ، فقد كان هذا من شأنه أن يرسخ من أهمية النار ، حيث لا حكومة ولا محاكم ولا سلطة تحول بين الموتور والواتر ، وقد كان هناك شيوخ القبائل ، ولكنهم لم يكونوا يملكون القوة التنفيذية التي بها يقتصون من الجاني ، لأن القبيلة لم يكن لها قانون جنائي ، فليس أمام الموتور إلا أن ينتقم من واتره (١٣٠) . وكان النار واجبا على أقرب الناس للقتيل ، وكانت عشيرة الجاني لا تخذله أو تسلمه إلى الموتور ، بل كانت تحميه وتؤازره ، فإذا ما قتل جنت عشيرته لتثأر له أيضا ، وبذلك تجددت الحروب والمنازعات وسفك الدماء وتطاولت .

ومن آثار الظروف التي أحاطت بالحياة العربية القديمة أيضا ، ما عرف " بوأد البنات " ، خوفا من أسرهن في الحروب وما يجره هذا على أهلهن من عار وانكسار ، أو من شدة الفقر والحاجة ، وهو ما اشار إليه الله عز وجل في قوله ( ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم إن قتلهم كان خطئا كبيرا ) الإسراء / ٣١

وإن كان يمكن ملاحظة أن الآية القرآنية لم تشر إلى البنات وحدهن ، بل عممت النهى على النوعين : الذكور والإناث ، مما يفيد أن الوأد في الغالب لم يكن قاصرا على البنات .

لكن هذا لا ينفى عدم ترحيب بإنجاب البنات ، وقد هجر أبو حمزة الضبي امرأته لأنها ولدت بنتا ، فمر بخباتها يوما وإذا هي ترقصها وتقول :

ما لأبى حمزة لا يأتينا      يظل فى البيت الذى يلينا  
غضبان ألا نلد البنينا      تالله ما ذلك فى أيدينا  
وإنما نأخذ ما أعطينا      ونحن كالأرض لزارعينا  
تثبت ما قد زرعه فىنا

ومن الواضح استعارة التشبيه فى دور المرأة فى الإنجاب بما يحدث فى عملية الزراعة ، وتشبيه المرأة بالأرض ، تثبت ما يزرع فيها .

- وأخيرا فقد تشكلت فى ضوء الظروف الخاصة بالأرض : بمائها وزروعها علاقات إنتاج خاصة ، فقد عرف نظام " الحمى " الذى يمكن أن يعد بمثابة البدايات الأولى لتحويل الملكية المشاعة ( الجماعية ) إلى ملكية فردية خاصة باسم رئيس العشيرة أو القبيلة ولفائدته الشخصية سواء كان ذلك تملكا أو تملك حيازة ، لكن واقع الاستغلال يبقى ثابتا فى كلتا الحالتين . والحمى نسبة إلى فعل ( حمى ) ، وحمى الشئ حميا : منعه ودفع عنه ، وقال الأصمعى : يقال حمى فلان الأرض ، يحميها حمى لا يقرب ، أما الليث فقال : الحمى موضع فيه كلاً يحمى من الناس أن يرعى (١٣١) .

ويروى ياقوت عن الأصمعى أن الحمى حميان : حمى ضرية ، وحمى الزبدة . أما ياقوت نفسه فيذكر أنه وجد أحماء أخرى مثل : حمى فيد - حمى النير - حمى ذى الشرى - حمى النقيع ، فأما حمى ( ضرية ) فهو أشهرها وأسيرها ذكرا ، وهو كان حمى كليب ابن وائل فيما زعم له بعض أهل بادية طى . قال : ذلك مشهور عندنا بالبادية يرويه كابرن عن كابر وهو سهل الموطئ كثير الخلة ، وأرضه صلبة ، ونباته مسمنة ، وبه كانت ترعى إبل الملوك . وحمى الربذة أيضا أرادته رسول الله ( ﷺ ) بقوله : لنعم المنزل ، الحمى ، لولا كثرة حياته وهو غليظ الموطئ كثير الحموض ، تطول عنه الأوبار وتنفق الخواصر ويرهل اللحم (١٣٢) ... الخ .

ويبين الشافعي الطريقة التي كانت متبعة في الجاهلية في تحديد الحمى الخاص فيقول : " كان الرجل العزيز من العرب إذا انتجع بلدا مخصبا ، أوفى بكلب على جبل أن كان ، أو نشز إن لم يكن جبل ، ثم استعواه ووقف من يسمع منتهى صوته ، فحيث بلغ صوته من كل ناحية (١٣٣) ، أحماه لنفسه . وفي الشعر المنسوب للعباس بن مرداس تنويه عن نفس المعنى ، إذ يقول (١٣٤) .

كان يبغياها كليب بظلمه من العز حتى طاح وهو فتيلها

على وائل إذ يترك الكلب نابحا وإذ يمنع الإقناء منها حلولها

وقد علق المستشرق لوكجارډ Lokkegaard بتعليقات طريفة عن هذه الطريقة في تحديد الحمى ، ويرى بأن ما أورده الشافعي إنما كان تعميما لحالة فردية (١٣٥) . وفي الواقع لم يقتصر الحمى على المجتمعات البدوية وشبه البدوية فقط ، بل عرفته المجتمعات الحضرية أيضا مثل اليمن .

وتذكر المصادر معاملات زراعية كان المزارعون في الجاهلية يمارسونها وهي عبارة عن عقود ومواثيق كانوا يأخذونها على أنفسهم بالقيام بأعمال زراعية معينة مثل :

المحاقله - المخابرة - المزارعة - المساقاة .

والمحاقله ، اكتراء الأرض بالحنطة أو الذهب أو شيء آخر .

والمزارعة على نصيب معلوم يتفق عليه بالثلث أو الربع أو أقل من ذلك أو أكثر ، أو على الأوسق من التمر والشعير أو على الدينار والدرهم (١٣٦) .

وقد اختلفت الآراء في المراد بـ ( المخابرة ) ، لكن التدقيق في هذه الآراء يجعلنا نتنبه إلى وجود شيء واحد وهو أن المخابرة ، المزارعة على نصيب معلوم مما يزرع في الأرض . أما تثبيت الأنصبة فلا دخل له بالتعريف (١٣٧) .

(و المزارعة ) ، المعاملة على الأرض ببعض ما يخرج منها ويكون البذر من مالها (١٣٨) ، فإن كان من العامل ، فهي مخابرة .

وكما مارس أصحاب الأملاك والمزارعون الجاهليون طريقة المحاقلة والمزارعة ، مارسوا ( المساقات ) كذلك ، وتكون بالاتفاق بين طرفين على قيام أحدهم بتوجيه المال إلى صاحب أرض أو ملتزم لها أو غير ذلك ، وهو محتاج إلى ماء مقابل تعهد يقدمه الطرف الثانى إلى صاحب الماء بعوض ، مثل جزء من حاصل أو عين أو ما شابه ، ذلك مقابل ذلك الماء وذكر أن المساقاة ، أن يستعمل رجلا فى نخيل أو كرم ليقوم بإصلاحها مقابل أن يكون له سهم معلوم مما تغله ، وأهل العراق يسمونها معاملة (١٣٩) .

وتضطر الظروف الاقتصادية المزارعين إلى بيع الثمار وخضر البقول قبل بدء صلاحها ، وقد يفعلون ذلك تخلصا من معاملات جنى الثمر وحراسته من اللصوص ، وحمله إلى الأسواق ، وأمثال ذلك من معاملات تحتاج إلى مال وجهد ، ويقال لذلك ( المخاضرة ) ، وقد عرفت بأنها بيع الثمار قبل بدو صلاحها ، سميت بذلك لأن المباعين تباعا شيئا أخضر بينهما مأخوذ من الخضرة ويدخل فى ذلك بيع الرطاب والبقول وأشباهاها (١٤٠) .

## الهوامش

- ١- محمد صالح سمك : أمير الشعر فى العصر القديم ، امرؤ القيس ، القاهرة ، نهضة مصر ، ١٩٢٩ ، ص ٣٥ .
- ٢- المرجع السابق ، ص ٣٧ .
- ٣- جواد على : المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٧١ ح-٧ ، ص ٦ .
- ٤- حسين عطوان : بينات الشعر الجاهلى ، بيروت ، دار الجيل ، ١٩٩٣ ، ص ٢٥ .
- ٥- المرجع السابق ، ص ٩٥ .
- ٦- المرجع السابق ، ص ٢٦ .
- ٧- المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام ، ح١ ، ص ٩٧ .
- ٨- أحمد إبراهيم الشريف : مكة والمدينة فى الجاهلية وعهد الرسول ، دار الفكر العربى ، ط٢ ، د.ت ، ص ١٠ .
- ٩- ياقوت الحموى : معجم البلدان ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٧٩ ، م٤ ، ص ٣٣٨ .
- ١٠- سبأ / ١٨ .
- ١١- معجم البلدان ، ج٤ ، ص ٣٣٨ .
- ١٢- الفجر - ٦،٩ ، الأعراف - ٣٣-٧٩ ، الشعراء - ١٤١، ١٥٩ .
- ١٣- المفصل ، ح١ ، ص ١١٥ .
- ١٤- مكة والمدينة ، ص ١١ .
- ١٥- المفصل ، ح٧ ، ص ١٣٠ .
- ١٦- المرجع السابق ، ص ١٣١ .
- ١٧- عبد الله عبد الجبار ، ومحمد عبد المنعم خفاجى : قصة الأدب فى الحجاز فى العصر الجاهلى ، القاهرة ، مكتبة الكليات الأزهرية ، ١٩٨٠ ، ص ٢٩ .
- ١٨- المرجع السابق ، ص ٣٠ .

- ١٩- حمود العودى : المدخل الاجتماعى فى دراسة التاريخ والتراث العربى القديم ، دراسة عن المجتمع اليمنى . عالم الكتب . القاهرة ١٩٨٠ ، ص ٣٣ ، ٣٤ .
- ٢٠- محمد على نصر الله : تطور نظام ملكية الأراضى فى الإسلام ، دار الحدائق ، بيروت ، ١٩٨٢ ، ص ٢٨ .
- ٢١- المرجع السابق . هامش ص ٢٩ .
- ٢٢- حمود العودى ، ص ٤٩ .
- ٢٣- تطور نظام ملكية الأراضى ، ص ٣٧ .
- ٢٤- المرجع السابق ، ص ٣٩ .
- ٢٥- الجاحظ : البخلاء . تحقيق محمد على الزغبى ، مكتبة العرفان ، بيروت ، ح ٢ ، ص ١١١ .
- ٢٦- بلاشير : تاريخ الأدب العربى ، ترجمة ابراهيم الكيلانى ، دمشق ، ١٩٥٦ ، ح ١ ، ص ٣٣ .
- ٢٧- تطور نظام ملكية الأراضى ، ص ٤٢ .
- ٢٨- تاج العروس ، ح ٣ ، ص ٤٥٤ .
- ٢٩- المرجع السابق : ح ٥ ، ص ١٠ .
- ٣٠- المفصل ، ح ٧ ، ص ١٣٦ .
- ٣١- تاج العروس ، ح ١٠ ، ص ٢٥٥ ، ح ٨ ، ص ٤٧ .
- ٣٢- أنور أبو سويلم : المطر فى الشعر الجاهلى ، بيروت ، دار الجيل ، ١٩٨٧ ، ص ص ١٢-١٦ .
- ٣٣- بينات الشعر الجاهلى ، ص ١١٣ .
- ٣٤- المفصل ، ح ٧ ، ص ١٥٦ ، ١٥٧ .
- ٣٥- لسان العرب ، ح ٢ ، ص ٨٢٨ .
- ٣٦- الشريف : مكة والمدينة ، ص ٧ .
- ٣٧- قصة الأدب فى الحجاز ، ص ٢٨ .
- ٣٨- المرجع السابق : ص ٨ .

- ٣٩- معجم البلدان : ح٤ ، ص ٣٢٠-٣٢١ .
- ٤٠- المرجع السابق : ح٣ ، ص ٢٢٨ .
- ٤١- مكة والمدينة : ص ٨ .
- ٤٢- المفصل : ح٧ ، ص ١٦٠ .
- ٤٣- حمود العودي : ص ٤١ .
- ٤٤- حسن محمد الشماع : سد مأرب ، من عجائب العالم القديم ، مجلة الفيصل ، الرياض ، العدد (٣٧) رجب ١٤٠٠هـ - مايو ايونية ١٩٨٠ ، ص ٩١ وما بعدها .
- ٤٥- أحمد حسين شرف الدين : اليمن عبر التاريخ ، مطبعة السنة المحمدية ، القاهرة ، ١٩٦٤ ، ط٢ ، ص ١٢٢ .
- ٤٦- ناجى معروف : أصالة الحضارة العربية ، دار الثقافة العربية بيروت ، ١٩٧٥ ، ص ٨٧ .
- ٤٧- حسن الشماع : ص ٩٥ .
- ٤٨- ابراهيم يوسف الشتلة : سد مأرب واحد من أضخم سدود الجزيرة العربية وأشهرها ، المجلة العربية ، الرياض ، العدد ٦٣ ، ربيع الثاني ١٤٠٣ هـ - فبراير ١٩٨٣ ، ص ٣٥ .
- ٤٩- المرجع السابق .
- ٥٠- الشماع ، ص ٩٦ .
- ٥١- ويندل فيابس : كنوز مدينة بلقيس ، ط١ ، بيروت ، ١٩٦١ ، ص ٢٤٣ .
- ٥٢- الشماع : ص ٩٦ .
- ٥٣- سبأ / آية ١٦ .
- ٥٤- حمود العودي : ص ٢٤ .
- ٥٥- المرجع السابق : ص ٢٥ .
- ٥٦- معجم البلدان : ط٤ ، ص ١٣٨ .

- ٥٧- على العتوم : قضايا الشعر الجاهلي ، عمان ، مكتبة الرسالة الحديثة ، ١٩٨٢ ،  
ص ٣٦٥ .
- ٥٨- المرجع السابق ، ص ٣٦٦ .
- ٥٩- الشريف : مكة والمدينة ، ص ٣٥٦ .
- ٦٠- المرجع السابق ، ص ٣٥٧ .
- ٦١- المرجع السابق ، ص ٣٥٨ .
- ٦٢- المرجع السابق ، ص ٣٥٩ .
- ٦٣- المفصل ، ح٧ ، ص ١٨٠ .
- ٦٤- على العتوم ، ص ٣٦٨ .
- ٦٥- معجم البلدان ، ح١ ، ص ١١١ .
- ٦٦- عبد الرحمن حميدة : بصرى ، عنقود العنب ، مجلة الفيصل ، الرياض ، العدد  
٣٥ ، جمادى الأولى ١٤٠٠هـ - مارس / أبريل ١٩٨٠ ، ص ٤٢ .
- ٦٧- المفصل ، ح٧ ، ص ١٨٢ .
- ٦٨- المرجع السابق : ص ١٨٣ .
- ٦٩- المرجع السابق : ص ٤٥ .
- ٧٠- تاج العروس : ح٧ ، ص ١٢ .
- ٧١- المرجع السابق : ح٣ ، ص ٥٣١ .
- ٧٢- المفصل : ح٧ ، ص ٤٨ .
- ٧٣- المرجع السابق : ص ٥٠ .
- ٧٤- المرجع السابق : ص ٢٨ .
- ٧٥- أحمد عبد القادر المهندس وعبد الملك العبد الله الخيال : نباتات حقب الحياة  
القديمة من المملكة العربية السعودية ، الفيصل ، الرياض ، العدد ٤٩ ، رجب  
١٤٠١ هـ السنة الخامسة ، مايو ١٩٨١ ، ص ١٢٠ .
- ٧٦- المرجع السابق : ص ١٢٢ .
- ٧٧- المرجع السابق : ص ١٢٣ .

- ٧٨- تاج العروس : ج١ ، ص ١٩٨ .
- ٧٩- المفصل ، ج٧ ، ص ٥٨ .
- ٨٠- تاج العروس ، ج٦ ، ص ١٨٦ .
- ٨١- المرجع السابق ، ج٤ ، ص ١٩٥ .
- ٨٢- المرجع السابق ، ج٤ ، ص ٣٨٣ .
- ٨٣- المرجع السابق ، ج٤ ، ص ١٨٦ .
- ٨٤- المرجع السابق : ج٣ ، ص ٤٧ .
- ٨٥- المرجع السابق : ج٢ ، ص ٢٥٣ .
- ٨٦- المفصل ، ج٧ ، ص ٦٤ .
- ٨٧- تاج العروس ، ج٢ ، ص ٤٥٨ .
- ٨٨- المفصل ، ج٧ ، ص ٦٦ .
- ٨٩- المرجع السابق : ج٧ ، ص ٦٨ .
- ٩٠- تاج العروس : ج٢ ، ص ٢١٧ .
- ٩١- المرجع السابق : ج٦ ، ص ٢٢٧ .
- ٩٢- المفصل ، ج٧ ، ص ٧٣ .
- ٩٣- محمود عرفة محمود : العرب قبل الإسلام ، القاهرة ، دار الثقافة العربية ، ١٩٩٨ ، ص ٢٩٢ .
- ٩٤- تاج العروس ، ج٩ ، ص ١٥٤ .
- ٩٥- العرب قبل الإسلام ، ص ٢٩٣ .
- ٩٦- المفصل ، ج٧ ، ص ٧٨ .
- ٩٧- المرجع السابق ، ج٧ ، ص ٩٣ .
- ٩٨- ناصر الدين الأسد : مصادر الشعر الجاهلي ، القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٧٨ ، ط٥ ، ص ٨٢ .
- ٩٩- المرجع السابق ، ص ٩٨ .
- ١٠٠- المرجع السابق : نفس الصفحة .

- ١٠١- الودى : فسيل النخل وصغاره ، لسان العرب ، ٢-٣ ، ص ٤٨٠ .
- ١٠٢- الشريف : مكة والمدينة ، ص ٣٥٧ .
- ١٠٣- المرجع السابق : ص ٣٥٨ .
- ١٠٤- أحمد محمد الحوفى : الحياة العربية من الشعر الجاهلى ، دار نهضة مصر ، القاهرة ، ١٩٧٢ ، ص ٤٢٨ .
- ١٠٥- العرب قبل الإسلام ، ص ٢٢٨ .
- ١٠٦- السمره : بضم الميم . من شجر الطلع والجمع سمر وسمرات وقيل من الشجر صغار الورق قصار الشوك . لسان العرب ، ٣-٤ ، ص ٢٠٩٢ .
- ١٠٧- الحياة العربية من الشعر الجاهلى ، ص ٤٢٩ .
- ١٠٨- المرجع السابق : ص ٤٣٠ .
- ١٠٩- المرجع السابق : ص ٤٣١ .
- ١١٠- عمر الدسوقى : الفتوة عند العرب ، دار نهضة مصر ، القاهرة ، ١٩٦٦ ، ص ٢٦ .
- ١١١- الحياة العربية من الشعر الجاهلى ، ص ٣٣١ .
- ١١٢- الفتوة عند العرب : ص ٣١ .
- ١١٣- المرجع السابق : ص ٥٩ .
- ١١٤- عبد الله جبريل مقداد : القيم العربية الأصيلة من شعرنا القديم ، عمان ، الأردن ، ١٩٩٦ ، ص ١٢ .
- ١١٥- المرجع السابق ، ص ١٣ .
- ١١٦- شوقى ضيف : العصر الجاهلى ، القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٨٢ ، ط ١٠ ، ص ٦٩ .
- ١١٧- المرجع السابق ، ص ٢٢٣ .
- ١١٨- المرجع السابق ، ص ٢٢٤ .
- ١١٩- المرجع السابق ، ص ٥٨ .
- ١٢٠- قصة الأدب فى الحجاز ، ص ٢٧٤ .

- ١٢١- المرجع السابق ، ص ٢٨٨
- ١٢٢- الحياة العربية من الشعر الجاهلي ، ص ٩١ .
- ١٢٣- المفصل ، ح٧ ، ص ٢٣٥ .
- ١٢٤- محمد عبد القادر بافقيه : تاريخ اليمن القديم ، بيروت ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ١٩٨٥ ، ١٧٤ .
- ١٢٥- شحر : ساحل البحر بين عمان وعدن .
- ١٢٦- تاج العروس ، ح٣ ، ص ٥٢٩ .
- ١٢٧- المفصل ، ح٧ ، ص ٢٤٠ .
- ١٢٨- قصة الأدب في الحجاز ، ص ١٧٤ .
- ١٢٩- نادى الطائف الأديبي : سوق عكاظ في التاريخ والأدب ، إعداد لجنة الآثار التاريخية مطابع الزايدى بالطائف ، د.ت ، ط١ ، ص ٧٠ .
- ١٣٠- الحياة العربية من الشعر الجاهلي ، ص ٢٨٣ .
- ١٣١- لسان العرب : ح٢ ، ص ١٠١٤ .
- ١٣٢- معجم البلدان : ح٢ ، ٣٠٨ .
- ١٣٣- لسان العرب ، ح٢ ، ص ١٠١٤ .
- ١٣٤- الماوردي : الأحكام السلطانية ، دار الفكر ، القاهرة ، ١٩٨٣ ، ص ١٦١ .
- ١٣٥- تطور نظام ملكية الأراضي ، ص ٤٦ .
- ١٣٦- تاج العروس ، ح٧ ، ص ٢٨١ .
- ١٣٧- المفصل ، ح٧ ، ص ٢١٧ .
- ١٣٨- تاج العروس : ح٥ ، ص ٣٦٨ .
- ١٣٩- المفصل ، ح٧ ، ص ٢١٩ .
- ١٤٠- تاج العروس ، ح٣ ، ص ١٨٠ .